فيصل

تحت المبضع

هدية المؤلف
الى الصديق الكبير
الأستاذ ألبير أديب
٢٢ آب ٩٤٩

تحت المبضع

عمر أبو ريشة بدوي الجبل شفيق جبري محمد البزم مهدي الجواهري

بقلم

محمد روحي فيصل

رئيس قلم المطبوعات في حمص
صاحب كتاب « من النقد الفرنسي »

قدم له

الأستاذ قدري العمر

مدير معارف حمص
صاحب كتاب « من الأدب »

منشورات

دار الحكمة — حمص

١٩٤٩


دار الحكمة
للصحافة والنشر

تمهيد

تهدف « دار الحكمة » من وراء نشر « تحت المبضع » الى غرضين : أولهما أن تتنفس كنوز الفكر والنقد عندنا بين أيدي القراء ، فحرام ان يظل الأدب الرفيع محتجباً فلا تنتفع به غير ظلمة الدروج في مكاتب الكتاب ! وثانيها أن تنطلق الحركة الادبية من عقالها في هذا البلد ، وان يعود الأدباء الى ما كانوا فيه من جو ماتع ، لئن تنوعت صحافهم ، فانهم يأكلون على مائدة واحدة . . وأحسب أن القراء سيستقبلون « تحت المبضع » بكثير من الغبطة والاعجاب ، وسيقبلون عليه وينظرون فيه ، فيلمحون خلوص النية في النقد ، وابداع الموهبة في التحليل ، وجمال الأسلوب في العرض . وفي ذلك اثارة لقوام ، ومادة لأقلامهم ان كانوا من أصحاب الادب والاقلام .

والقارئ هنا ازاء صورة جديدة من الأدب السوري المعاصر ، مشى في تجليتها الكاتب الكبير الاستاذ فيصل على نمط قيم وهو الوقوف عند كل قصيدة من قصائد مهرجان أبي العلاء الألفي ، يدرسها ويستقرئ مواضع قوتها وضعفها ثم يخلص من دراسته واستقرائه ، على هدوء وبصر ، الى جملة القول في مرحلة التطور التي يجتازها الشعر السوري في هذه الأيام . وليس في كتابنا من هو أنهض بذوق الادب وأقدر على الانتاج الفني ، على أساس من الموهبة والثقافة ، من الأستاذ فيصل . وفي المقدمة التي تفضل سعادة مدير المعارف الأستاذ قدري العمر فكتبها خصيصاً لهذا الكتاب ، ضوء ساطع يكشف أدب محمد روحي فيصل في اخص خصائصه وأبرز آفاقه.

فالى الاستاذين الكريمين أتقدم بشكري الخالص لما سوف يتيحان لقراء « تحت المبضع » من تزجية بضع ساعات ممتعة مشرقة .

بشير الزهراوي

« مؤسس دار الحكمة »

تحت المبضع

المقدمة

بقلم الاستاذ فدري العمر

يظهر الادباء ويغيبون ، وتمضي الشهور والسنون ، وتصير أيها الحدث فتى ، وتنقلب أنت أيها الفتى كهلاً ؛ وقد يضحك حظك فتبلغ الشيخوخة وتدرك الهرم ؛ ويتغير عليك في سفارك هذا كل ما تعرض الدنيا من حلو ومر ، وجميل ودميم ، وقاس ولين !.. يتغير عليك كل شيء ، ما حييت ، ولكن حديثاً واحداً لا يتغير ولا يتبدل ، ويبقى على ما كان يوم قبل ، ويوم صار ، ويوم كان !..

هذا الحديث هو كلمة الادباء في الادب ، اذ يقولون :

الأدب في بلادنا والفنون الجميلة جميعها ليست سوى جمود وركود وكساد

ذلك اللحن القاتم الحزين ، تسمعه في كل بلد من بلادنا ، وفي كل مصر من أمصارنا !.. تسمعه من الأديب والمتأدب ، ومن الشاعر والشويعر ؛ ومن الذكي والغبي ، والعالم والمتعالم ؛ انك تسمعه من البارد الغليظ الثقيل ، ومن الخفيف الهازئ الأنيس!..

نعم ! تسمع ذلك من كل أديب ، نابهاً كان أم خاملاً ، ولكن أديباً واحداً لا تسمعه منه ! هذا الاديب الواحد هو الاستاذ محمد روحي فيصل.

انه مشغول بالعمل للأدب ، عن التفكير بجموده ، أو كساده . فاذا التقيت به ، ينتهي سلامكما في أقل من القليل ؛ أما حديثه في الادب

فلا ينتهي الا بعد تثبيت فكرة ، أو بسط رفة قلب ، أو عرض صورة تحلو معها الحياة .

وخلاصة القول : هو أن الأدب عند الأدباء، هامد ، راكد، كاسد !.. أما عند الاستاذ محمد روحي فيصل فهو لا يهمد ولا يركد ولا يكسد !..

انه يشع ساعة اليأس مثلما يشع ساعة الأمل ، ويعمل في البطالة مثلما يعمل ابان العمل ، وينمو بين الظل الهنيء كما ينمو تحت القيظ الثقيل !.. وضحوة النهار في الصحاري ، وفي البساتين مع الاسحار ؛ والى الساقية ، والى البحار ، وعند السمراء وعند البيضاء ؛ انه يشع ويعمل وينمو مع الحياة أينما توجهت الحياة !

فمن كان في حمص منذ نيف وخمسة عشر عاماً ، رأى في الطريق المؤدية الى مقهى « الدبلان » شباباً أدباء مثقفين يمشون نحو الدبلان فرحين مستبشرين ، يريدون أن يجتمعوا الى حلقة الاستاذ محمد روحي فيصل ، ليسمعوا منه ، ويسمع لهم ، ويتجادلوا في النقد ، وليرسلوا بين هذا وذاك الفكرة الدقيقة في الفكاهة الطريفة ، وليفيد بعضهم من بعض . انهم يمشون الى الدبلان ليستمتعوا بحديث الأدب ، وليفيدوا بهذا الحديث وهم مستمتعون ..

وفي قدرتك أن تطوي الايام الى ابعد من ذلك ، فترى روحي فيصل تلميذاً في صف البكالوريا ، ينتظر ، بشغف ، درس الأدب . فاذا صار الى الدرس ، صب على المدرس مواهب متوثبة بالسؤال ، والنقاش ، وكثيراً ما أوضح ما لم يطمئن له من آراء المدرس .

وهكذا تراه اليوم ، وتراه قبل بضع خمس عشرة سنة ، وتراه قبل ذلك بكثير ؛ انك تراه قد انصرف نحو الأدب ، فتوجهت مواهبه نحوه توجهاً غرق معه فيه ، اينما كان وحيثما ذهب او صار ...

والممتع ، أنه صار يوماً في الجامعة الفرنسية في بيروت ، وكان قصد اليها ايدرس الكيمياء ، فأعطى الكيمياء بعض عقله ، واحتفظ بالباقي كلـه للأدب ، فكتب فيه ما شاء له غرامه به أن يكتب ، وطلع على القراء في الصحف والمجلات بأحاديث وموضوعات لا يستغني عنها أحد ، بل يلتهمها قراءةً كل أحد . فالذين قرأوها ، وما أكثرهم ، قد امتزجت بأدبهم ، ثم أخذت بيدهم الى ألوان من الأدب ورقاقة غير حائرة ، فكانت لهم ايحاءً لا يدركون مصدره ، او وعياً اصطنعوه ، وما علموا انهم اصطنعوه ، او تقليداً استمسكوا به حيناً طويلاً . .

وبعد ، فمتى يكون الاديب كذلك ؟

الجواب على هذا السؤال ، قد صار سهلاً بعد هذا الكلام ، بل صار يتحرك على كل فم ولسان ، وقد يكون سطع بالضوء الصافي في كل جنان . . . واذن يقع البحث على ان روحي فيصل أديب حقاً ، تطمئن لذلك ، وتعتقد به ، وتفرح له ، وتفيد بنتاجه ، ولا تنافسه ، وانما تدعو له ولرواج آثاره . .

والآن ، هل تريد أن تستريح أيها القارئ ، ام تريد أن نقتحم معاً ما بقي من الموضوع ؟ . . بالرغم من أن الباقي من الموضوع هو أصعبه ! . . فقد بقيت عقدته ، وموضعه الذي يغيب وراء الآفاق . نعم . . بقي أن تنفذ الى أدب محمد روحي فيصل ، وتجرب هل تستطيع ان تتبين حدوده او بعض حدوده ، وتتبين مداه او بعض مداه ؟

وعلام الراحة ، ما دامت أحلى المتع تستقر في الاستغراق في نتاج الادباء . . فلنستيقظ اذن أكثر من يقظتنا الأولى ، وانمش بتؤدة في دروب متداخلة ، ولنحمل سراجاً نحرص عليه فلا نضيعه ، واذا خبا نشعله حتى لا نضل الطريق ، وحتى نبلغ من أدب روحي فيصل

مداه او بعض مداه . .

فتعال نبدأ بالرجوع الى آثاره ، او الى الألوان البارزة من آثاره ، لنتصل بأسلوبه وبنتاجه في الترجمة والانشاء والنقد والقصص .

أما أسلوبه فسهل ، الا اذا طالت الجمل ، وقليلاً ما تطول جمله ، وحينئذ يبلغ العميق من التفكير ، ويبلغ الامواج ذات الاهتزاز العاصف من العاطفة ، وفي هذه الحال تبرز قوته في غاباتٍ ظلها ظليل ، ونورها غير ضئيل ! وقد تغمض القوة فلا تظهر الا للذي يحمل المواهب التي يحملها روحي فيصل صاحب الاسلوب ، والا للذي خالطه او جالسه او باحثه او سمع له ! . .

ذلك الأسلوب قد يلحق القرارة في الوادي السحيق ، وقد يسبح على الطافي منه ، وما أدري اي النوعين اكثر اتصالاً بأسلوبه ، ولعل الذين يقرأونه يعيدون قراءته فيكونون هم الحاكمين

ومحمد روحي فيصل صاحب خيال ، حسيه اكثر من معنويه ، ويبدو أن قوة التفكير في اسلوبه اقوى من قوة التخيل ، رغم ان خياله حلو مزين بديع . . ويبدو أيضاً ان تفكيره يتصل بالعلم وينابيعه اكثر مما يتصل بالتأمل وينابيعه ، على سمو تأمله وعلى قوة الكشف في هذا التأمل . . . . اما العاطفة ، فهي في اسلوبه تلين وتربت ، ثم تعود فتشمع وتهتز . . والضحك يخفى بين سطوره ، بل كثيراً ما تفقد الابتسام بينها ، غير أنك تعوض عن الضحك والابتسام بسحر قوي جامع رحيم . . ، واللغة ، وهي اداة البيان ، قد تعب لها ، واخذ منها ما ينبغي ان يؤخذ ، ثم لقحها بالفرنسية . ويبدو ان اللغتين قد تغالبتا حيناً على طريقة الأداء ، تريد كلتاهما ان تظفر بطريقته في الاداء ، وأخيراً استقرتا ، فصار لكل واحدة منهما ساقية موصولة بينبوع غزير من العلم والفكر والعاطفة والخيال ؛ فكانت

سهلة الارواء ، سهلة التلحين ، سهلة الوصول الى الازهار والاطيار .

وفي آثار روحي فيصل ظاهرتان قويتان : أولاهما أنك تذكره ، وانت بين سطوره ، فيتمثل لك في جلسته وحركته وحديثه ، وكثيراً ما رأيت نفسه ، وانت بعيد عنه ، بقراءة أثر من آثاره ! . . وثانيتهما هو انك تتعرف بآثاره الى نفس رضية تعمل دائماً الى ان تكون خفيفة كالنسيم فتتوفق ، وتعمل الى ان تتودد لك وترضيك وتقدم لك ما تفيد به وما تستمتع عند قراءته ، فتتوفق ايضاً . . . بل يبلغ من توفيقها انك تشعر ، وانت بين سطوره ، انك تجالس نفساً لا تتطاول على احد ، ولا تتعالى على احد ، رغم ما تحمل من قوة . . انها تقدم ما عندها بسخاء وكرم ، فتشعر انك مأخوذ بالتواضع وبالكرم ، فتحترم وتحب النفس التي تجلس وراء هذه الاثار ! . . ولعل هذا السمو النفسي قد جاءه بالوراثة ، ثم بما قرأ من كنوز العربية والفرنسية . ألا ترى انه ترجم احسن ماقرأ في الاجنبية الى اللغة العربية . .

فاذا كنت قد قرأت لروحي فيصل بعض ما ترجم ، فقد عرفت انه ترجم الدقيق من بحوث (فاليري) و (بودلير) . . وكلاهما قد خاض اعمق ما يطلب الأدب ، فجاء روحي فيصل ، فنقل الى ابناء امته احسن ما عند الأديبين الغربيين ! . . وهو فيما ترجم ، يبدو كأنه منشىء ، لا مترجم ، ولعل ذلك يرجع الى ان الاستاذ روحي فيصل قد وجد في جنبات نفسه الكثير مما خطر لأولئك ووعاه من قبل ان يرى آثارهم ، فلما ترجم رسائلهم ، كان موصولاً بينبوعه وهو بين ينابيعهم ، فنضح عن حوضين . اولاهما حوضه ، والثاني حوض الاباعد ، لذلك غمض عليك الفرق بين رسائله المترجمة وبين رسائله المؤلفة بروحه ونفسه . .

ومن المفيد ان ننتقل من قطعه المترجمة الى قطعه الخاصة به ، واذن فلتقي ببحوث منوعة في الأدب ، ونلتقي بقصص حلو مفيد .. اما البحوث الأدبية فهي كبحوثه المترجمة قوة وعمقاً وادراكاً ..

واما قصصه، فيعتمد على الفائدة اكثر مما يعتمد على المتعة ، ويتصل بواقع المجتمع الحسي اكثر مما يتصل بواقعه النفسي ، وبالعلم اكثر من الخيال ، وعقده قوية تارة متراخية اخرى ، والحل تتراوح عليه الفائدة والمغزى فتقومان مقام دقة الحركة . والمعتقد هو انه لو عمل للقصص مثلما عمل للبحوث الأدبية وللترجمة ، لبلغ من القصص اكثر مما بلغ منها غيره ..

وبعد ، فرغم قوته في القصص ، تستطيع ان تطمئن الى ان قوته الأدبية تتركز على النقد ، فتظهر في نقد الشعراء وتحليل الشعر .

هذه القوة تتجلى اذا عرف انها كاشفة تحيط بأدق ما في اللفظ من دلالة ، وبأدق ما بين اللفظ وبين اسرته من انسجام ، وتعرف اضواء الجميل ، وظلمة الدميم ، ولا تفوتها النجوى ، ولا رفة القلب ، وتلمح الشعاع البائخ ، كما ترى الشعاع اللامع . . . والفكر الغامضة واضحة اذا وقعت تحت بصرها ، واما الواضحة فهي بين الاصابع متداولة . . .

لذلك كله ترى روحي فيصل ، وهو يبحث الشعراء ، قد يعبس عبوساً يكاد يكون قاسياً ، فاذا انتبه الى انه تأثر بالدميم اكثر مما يعمل الدميم ، عاد عن القسوة الى اللين في رفق حبيب . ولذلك ايضاً تراه يفرح عند الأثر الجميل ، فيدل على قوته بتهلل مشرق ، ويجود على المؤلف بأطراء مسرف ، حتى اذا انتبه الى هذا الاسراف عاد الى الميزان الحساس .

وخلاصة القول في الاستاذ فيصل هو انه اديب قوي ، منتج ، غزير العلم ، دقيق الاحساس ، ناقد كاشف ، ذو نفس كريمة وقلب صادق اصيل .

تموز / ١٩٤٩ قدري العمر

دنيا الأدب عالم ثانٍ

*

في الشعر معنى الحياة التي تروع بجمالها، وتجدد بأثرها، وتدق بهندستها. ألا من مبلغٍ عني معشر الجاهلين أنهم يحذفون الحياة نفسها حين يحذفون الشعر من قائمة الفن

*

الكلمة الواحدة تدخل في رأسين اثنين، فتحمل الى هذا النشوة والسلام، وتحمل إلى الآخر الفتنة والآلام

*

النقاد اثنان: ناقد عالم ينفذ الى الحق من خلال الهوى، ويمعن في الجمال من غير شهوة، ويدل على الخير كأنه فاعله، ويقوّم الانتاج بميزان الصيدلي الحساس. وناقد مريض تمشي الأثرة في لفظه على غير استحياء، ويلوي المعنى في كلامه على

مكر ، وينبت اللؤم في صدره بلا زهر

قال الرأي العام : « أحب الأول ، وأرثي للثاني »

*

بعض كتاب زماننا مثل الافاعي ، يخيفون بفحيحهم الحاد الداوي ، ويؤذون بسمهم الحلو الجاري

*

الشهرة معنى جديد ينهض بأكثر من عشرين قصيدة

*

أرأيت إلى الحياة في مضطربها كيف تبدلها اللمحة ، وتنقلها الملاوة ، وتصبغها العاطفة ، وتخضعها الظروف ؟ فذلك ما يبعث على جدتها وجمالها وخلودها . وذلك — على الضبط — ما وكل الى الفن بتصويره

*

قد يجيش صدر الأديب بالمعاني حتى ما يستطيع أن يحتملها ، وقد ينضب حتى لكأنه بلقع قفر . انها حياة نقلة ومخاض . ما أشبه الأديب باسفنجة لدنة تمتلىء حيناً وتفرغ حيناً . كل ما

يجري به قلمه قد تمثله وعاشه . قاعدته في البيان : « خذ واعط »

*

القول ما قال « سنت بوف » : نصيحتي الى أدباء الشباب الاّ يقلدوا من يعجبون بهم من أعلام البيان ، فذلك يميت نفوسهم ، ويشوّه شخصيتهم . حسبهم أن يتذوقوا آثارهم ، وليكن لهم مثل أعلى يوجه إنتاجهم ، ويصحح مقاييسهم ، ويهذب أهواءهم . ولا غضاضة عليهم – وهم ينشئون في لغة جميلة ، متأثرين بالنفس والبيئة يستمدون منهما الوحي والقوة – أن يتساءلوا من حين الى آخر ، وجباههم مرفوعة الى السماء ، وعيونهم شاخصة الى الاموات الاحياء : « ترى ، ماذا يقال فينا ؟ ! »

*

الشعراء ثلاثة : شاعر موهوب ينفث من نفسه معنى الفاظه ، ويستخرج من لغته الفاظ معناه ! يحدر الى سريرته ليبسطها ، ويجلو المبهم منها ، ويفرز المتداخل المتشابك ، ثم يسجل الخلجة الجميلة او الخاطر الأصيل وكأنما يلد من لحمه ودمه جنيناً حياً ، يرعاه ويحبه ويحرص على ان يكون قوياً

نشيطاً سليماً ، ويأخذه بألوان من التهذيب والنضارة حتى يثمر .
ولئن نصب الشاعر في الولادة ، وعانى ألم البيان ، فلقد يستمتع بمرأى الوليد النضر الجميل يسعى وينطق ثم يكون له نصيبه الموفور من الحياة ، وفضله العميم على الناس

وشاعر ميت يتصيد اللفظة الشاردة ، والكلمة المتأبدة ، من بطون المعاجم ، وإنتاج الزملاء ، وقديم الأدباء ، وكأنما يتصيد الفريسة الدسمة السمينة . . . ! ولعله يلتزم صنعة البديع بتشبيهه ومقابلته وجناسه ، وكأنما يلتزم طرائق البيان الخالدة ، ويعلن عن ثقافته وذوقه

وشاعر مفلس لو اجتمع مرة للرثاء ، ونوى البكاء ، لتصفح المراثي الباكية واحدة فواحدة ، ومعنى معنى ، وبيتاً بيتاً ، ثم اختلس هذا ، وقلب هذا ، ووجه وزاد . . لقد يقتفي المسكين روائع غيره ، ويختبئ وراء نظمه ، وينزل عن شخصيته ، ويسف بكرامته - حباً بالذكر والأحدوثة

قال التاريخ : « عبثاً ينتج شاعر الصنعة وشاعر السرقة »

محمد روحي فيصل

الشعر في مهرجان أبي العلاء

— ١ —

سحب الزمان ذيل ردائه الاسود الكثيف على مهرجان كانت سوريا قد ضجت له بفيحائها وشهبائها وحمصها ولاذقيتها ، وبما بين هذه من مدن وقرى ، والصحافة قد احتفلت له بأعمدتها الطوال وعناوينها العراض ، والحكومة قد ساهمت فيه بنصيب عظيم خصصت الاموال وهيأت المنابر وأقامت المآدب . وجعل الناس يتحدثون في المحافل والمجامع بما كان من شأن ابي العلاء

المعري في التفكير والدين والشعر والنثر والكتب ، يتدارسونه ويقرؤون له ثم يختلفون في نظرته للمرأة وعلة تشاؤمه ومصدر ثقافته وغير هذا من الموضوعات التي يثيرها الحديث عن أبي العلاء ، ولكنهم على اختلافهم في ذلك وعلى توهج نظراتهم اليه كانوا يتفقون فيما بينهم على شيءٍ : الحب والاعجاب !

فقد منحه الناس قلوبهم وأوسعوا له في عقولهم فظفر منها في العصر الحديث بما لم يظفر به الا الاقل القليل من ادباء العربية ، وكان حبهم له واعجابهم به تعويضاً عما لحق به في زمانه من جور ، كما كان هذا الحب والاعجاب مصدراً لنشر بعض آثاره على نحو جميل ، ولدراسة حياته وادبه وآرائه في العربية وفي مختلف اللغات الاجنبية

اجل ، لقد انقضى ذلك المهرجان الرائع ، وطوته الايام في جملة ما تطوي على عادتها من جليل الاحداث ، فأفلت الوفود العربية الى أوطانها ،

وسكت الناس في هذه البلاد عما كانوا يخوضون من حديث ابي العلاء في حوار هادئ او صاخب ، ومضت الصحف اليومية والاسبوعية في سبيلها المخصص لها في هذه الايام من الكلام عن الحرب ومشاكلها ، والاعاشة واوضاعها ، لا تذكر من المعري قليلاً ولا كثيراً ، كأنما الذاكرة قد وعته زمناً لتسلوه ابداً ، او كأنما كان زياً من اللباس يرتديه الناس ثم يخلعونه لا يعودون اليه من بعد ذلك او يعود اليه المثقفون الادباء منهم بين حين وحين

وليس من ريب في ان المعري قد ظفر خلال المهرجان بنعمة الحديث عنه ظفراً لم يتطاول اليه من قبل في هذه البلاد السورية الا ظفر أبي الطيب المتنبئ حين انعقد له الكلام الطويل بدمشق وحمص عام ١٩٣٦ ، فما ازال اذكر ، والناس يذكرون معي ، انه كان عاماً قوياً بالغ القوة ، خصباً بالغ الخصوبة ، عاد على الادب بوجه عام وعلى المتنبي بوجه خاص بكثير من الخير والنفع . فقد انطلقت الاقلام وانطلقت الالسن تعيد وتبدئ في مالئ الدنيا وشاغل الناس

ما شاءت لها الظروف ووسعها الكلام ، فظفر الشاعر العربي الكبير بسيرورة مليحة وشهرة مستفيضة هما تاج على رأس ما كان له منها على الزمان وفي كل حين .

ولكن مهرجان ابي الطيب المتنبي ما كان أنداه على القلوب وأحلاه في الآذان ! ينصرم صيف ١٩٣٦ فاذا الصمت يخيم ، والالسن تكف ، والاقلام تجف . وتمر الاعوام تتلوها الاعوام ، والموقظات كثيرة ، والمناسبات عديدة ، ولكن الادباء صم بكم عمي فهم مع النائمين نيام. حتى اذا حل هذا الصيف ، صيف ١٩٤٤ ، نشطت الحركة في المفاصل ودبت الحياة في النفوس ثم وقع الكلام من نفسه على شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء كما يقولون ، فاذا هو من لحده الضيق بالمعرة في سماء رحبة تتجاوب فيها اصوات الخطباء وصرير الاقلام ، واذا هو من ظلمة رقدته الهادئة في نور الحياة وضوضاء الشعب !

اعوام ثمانية مرت بين المهرجانين على اعضاء المجمع العلمي العربي كقطع من الليل لا يثبتون فيها وجوداً ، ولا يطلقون

صوتاً ، ولا ينظمون شعراً ، ولا يخطون سطراً ، كأنما هم كانوا من الحياة الادبية في سوريا على الهامش او في الحاشية ، او كأنما كانوا كالاناسي الآخرين يشركونهم فحسب فيما يضطربون فيه من اعمال الحياة ومشاغل العيش . ترى ، أفيعني هذا ان الجندي والتقي والبزم والمغربي وجبرى هم من ادباء المناسبات ؟ اما سكرتير المجمع السيد ياسين الخانجي فيقول : لا ، افما ينطوي الاستاذ كرد علي في غوطته على نفسه فيقرأ ويكتب ؟ واما الزمان فيقول : نعم ، بلْ فيه ، افيحس الناس لأعضاء المجمع وجوداً او يسمعون لهم صوتاً إلا في الثمانية اعوام مرة ، على كثرة ما يضطرب في هذه الاعوام الثمانية من الدواعي والبواعث ؟ واذن افلا يكون اعضاء المجمع العلمي ادباء مناسبات ؟ ايهما الصادق في قوله أياسين الخانجي ام الزمان ؟ لا ريب عندي ان الزمان فيما قال وما يقول اصدق من صاحبه !

ومهما يكن ركود الادب عند اعضاء المجمع العلمي ، وانشغالهم بكل شيء الا بالانتاج ، فلقد توفروا هذا العام على أبي العلاء

كما توفروا منذ اعوام على ابي الطيب ، فدعوا الى الاحتفال بمهرجانه الالفي طائفة من كبار الادباء والباحثين ، وكان لما بذلوا له من جهد ، ولا اقول من انتاج ، اعظم الأثر في نجاحه هذا النجاح الذي قل ان شهدت هذه البلاد له ضريعاً . فالحق ان اعضاء المجمع جامدون متزمتون ، لا استثني منهم الا فريقاً قليلا ، ولكنهم اذا جد الجد ، ونفضوا عن انفسهم رداء الكسل ، وصاروا الى شيء من روح الشباب ، خرجوا كأقوى ما يكون ادباء المناسبات احتفالاً بمن يتحدثون وتقديراً لمن يهتفون . فقد استطاعوا عام ١٩٣٦ ان يخلقوا تياراً لا بأس بقوته من النشاط الفكري والادبي عند طائفة منهم ومن الشباب ، في سوريا وفي غيرها من البلدان العربية ، كما استطاعوا هذا العام ان يعيدوا الى هذا التيار جريانه بعد ما ركد ركدة ظننا ان لا سبيل الى استئناف الحياة فيه .

وكان من وراء نشاطهم المحمود محصول ادبي ليس من الضخامة بالقدر الذي كنا نتوقع ، الا ان قيمته لا بأس بها في الجملة وإن كانت تتفاوت الخطباء والشعراء في

اقدارهم ومواهبهم واستعدادهم .

ويحسن هنا التفريق بين ما قيل في المهرجان من نثر ومن شعر . فاما ان ابا العلاء المعري نفسه قد استبان لنا على غير ما كنا نعرف من صورته ، فذلك ما لا يقوله اديب له شيء من مشاركة في فهم الادب على العموم وفي فهم الادب العربي على الخصوص . فما شع من هذا المهرجان الذي انقضى ضوء نظرية جديدة من شأنها ان تنير ناحية من ابي العلاء كانت مجهولة او مظلمة ، ولا انبثق عرض شامل ينظم هذا الرجل الكبير في شتى مجاليه ، وانما كان المهرجان في اكثر بضاعته النثرية المزجاة اجتراراً لما يعرفه عن ابي العلاء أوساط الادباء بله المتعمقون منهم . فالواقع ان الذين درسوا ابا العلاء من قبل في الكتب والصحف قد استوفوا أغلب ما يمكن أن يقال فيه ، من عرض لحياته ، وتصوير لآرائه ، وتقويم لعبقريته . واذن فما كان خطباء المهرجان الا رجالاً أخرجوا ابا العلاء من مطاوي الكتب الى دنيا الناس في جمهرتهم الساحقة ، فاجادوا من هذه الناحية اكثر مما اجادوا

في درسه من جديد درساً يضيف الى ما كان معروفاً عنه شيئاً من حديث او طريف .

أفاد المهرجان هذا الرجل العامي الذي لن يتطاول وقته او عقله الى مطالعة ابي العلاء . وافاد هذا الرجل المثقف الذي شغلته الشواغل العامة عن الرجوع الى احدى عبقريات الادب العربي . وما عدا هذين ، فالمهرجان ما كان له قط من عائدة على اديب او شاعر الا بقدر ما كان له من قبل من مشاركة فكرية او فنية

ربما كان هذا هو الذي رمى اليه اعضاء المجمع العربي حين عقدوا لابي العلاء المعري مهرجاناً الفياً، كأنما هم قد حرصوا على اهاجة الرأي العام الى رجل خليق بالدرس جدير بالتقدير ، ففيه مناح حية وعبقرية قوية هي حقيقة بكل خلود . والرأي عندي انهم مصيبون من هذه الناحية ، فاغلب المهرجانات التي تقام للادباء في بلاد العالم تثير الفضول وتخلق الشوق عند عامة المتأدبين وجمهرة المثقفين . بيد ان الكلام المعقود في مثل هذه المناسبات لا يخلو ، او يجب ان لا يخلو ، من جديد طريف لم يكن معروفاً

من قبل عند الخاصة من الناس . وأداني مضطراً الى ان اصرح هنا ان الدكتور طه حسين حين القى كلمته في المهرجان عن « الفصول والغايات » لم يكن دارساً ابا العلاء من هذه الناحية دراسة جديدة ، وانما كان معيداً لكلمة كان هو نفسه قد كتبها بنصها وروحها في مجلة « الحديث » الحلبية منذ اربع سنوات !

افرأيتم كيف كان الاجترار واضحاً في مهرجان ابي العلاء عند عميد الادب العربي ؟ افرأيتم كيف كان الدكتور طه كسولاً الى درجة لم يجد ما يقوله في الجامعة السورية الا العودة الى قديم ما كتب ونشر ؟ وما ذكرت هذا الا على سبيل المثال ، فما همي الآن الا ان اظهر القراء على ان مهرجان ابي العلاء لم يكن فيه من الجدة الا هذا الكلام المكرور المألوف ، ان كانت في الكلام المكرور المألوف جدة !

ذلك هو على التقريب شأن ما قيل في المهرجان من نثر . فمن هنا لم أجد بداً من التجاوز عن هذه الخطب

التي ألقيت ، فما أقف عندها وقفة قصيرة ولا طويلة ، وما اعرض لها بنقد او تحليل ، فهي معروفة من قبل بروحها وبشيءٍ من نصها . فأما الشعر في مهرجان أبي العلاء فله عندي شأن آخر يفوق شأن النثر درجات .

شأن الشعر في هذا المهرجان ، كشأن الشعر في كل زمان ، عامل من اقوى العوامل في ايقاظ الشعور الغافي او تصوير الشعور الواعي ، ومجلى لشخصية الشاعر ورهافة احساسه وروعة بيانه . فأين مكان شعراء المهرجان من هذه الآفاق الخصبة؟ هل صوروا أبا العلاء المعري كما هو في حقيقته او كما هو في أنفس الادباء او كما هو في أنفسهم ؟ ان وفقوا الى ذلك ، او الى شيءٍ من ذلك ، فما هو مدى توفيقهم ؟ ثم أيهم أجاد اكثر من صاحبه او حاول الاجادة اكثر من صاحبه ؟

هذه وغيرها اسئلة لا بد من الجواب عليها بالتفصيل ليدرك الشعراء مبلغهم من الاحسان ، وليدرك الناس منهم نوع هذا الأحسان . وربما كان هذا الاطار الآسر الذي وضعناه ضرورة

محتومة لا بد منها في تقدير الشعر والشعراء، بل ربما كان هذا الاطار الآسر ضرورة محتومة بالنسبة الى شعرنا السوري والى شعرائنا السوريين على الخصوص . فلقد عودوا الناس على ان يقولوا شعراً قيماً او غير قيم ثم تنشره الصحف على أنه آية الآيات في الابداع والبلاغة . وربما كان الامر في حقيقته كذلك ، وربما لم يكن ايضاً ، ولكن الناس ازاء هذا الثناء المستفيض المتصل قد أخذهم شعور الاعجاب بالشعراء من غير تبصر ولا فهم ، أخذهم بالعادة فتدسس الى « لاوعيتهم » فاذا هم كالمهلل المصفق بالعدوى لا يتبينون ما يفعلون ، ولا يفكرون فيما يعملون ، لأن اكباراً قد ملك عليهم شعورهم الواعي وغير الواعي ، فما يستطيعون الا أن يعجبوا باكثر مايقال لهم من شعر .

أما النقد فلا يقيم وزناً لأكبار الجماهير ان رأى في الشعر ما لا يرضيه ولا يعجبه ، فانما هو يحب ان يدرس الشعر حسب مقياسه الفني والشعوري والتعبيري ،

فما استحسنه هتف له ، وما استهجنه أشار اليه برفق وابتسام !

ينبغي اذن ان نعرض لهذا الشعر الذي أنشأه اصحابه من اجل المهرجان ، بل ينبغي ، وقد سحب الزمان على مهرجان ابي العلاء ذيل ردائه الاسود الكثيف ، أن نقف عند كل قصيدة من القصائد وقفة قد تطول وقد تقصر حسبما يسمح لنا المشرفون على هذه المجلة من صفحات . واذا كان لي ما ارجوه فهو أن يفتح لي الشعراء صدورهم وقلوبهم فلا يغضبون ولا يضيقون بالنقد مهما اشتد وقسا ، وهو ما أعلم انه ينفعهم اكثر مما نفعهم ثناء الناس حتى الان .

وموعدنا بذلك في الاسبوع القادم ، فالى اللقاء مع قصيدة مهدي الجواهري .

— ٢ —

لا أدري اذا كان الاستاذ مهدي الجواهري لا يزال غضبان مهتاجا ، بل لا ادري اذا كان غضبه واهتياجه لا يزالان على الحال التي عرفت من العنف والقوة ، فما اعرف اني اسأت اليه حين وضعت كلامه الذي قاله ، في حفل خاص ، بين يدي الدكتور طه حسين ، في موضع بارز من إحدى الصحف الدمشقية ، فقد اعجبت بكلامه ذاك وأعلنت له شخصياً هذا الاعجاب ثم عدت الى إعجابي فسجلته تسجيلاً لا يدع في نفسه شيئاً من الشك . فليت شعري ماذا يريد الجواهري مني بعد هذه المراحل الطيبة التي طويتها معه على الاعجاب ؟ إن يكن يريدني على ان اكون له صناجة مداحة ، أقرع لشعره بالدف والمزهر في كل

نادٍ ومحفل ، وفي كل جريدة ومجلة ، فقد أخطأ ظنه وطاش حسبانه ، فما عهدتني معه ومع غيره الا معجباً الى حد ، مكبراً باقتصاد ، مثنياً بتحفظ ، لا أذهب مع الاجادة والاحسان الى السماء ، ولا أذهب بالضعف والكبوة الى التشهير . . .

يعود إعجابي المعتدل بالجواهري الى سنوات ، فقد هبط يوماً من العراق الى بيروت مع زوجه الاولى يرحمها الله ، فأنست بمعرفته في بعض الفنادق على البرج ، ثم كان بيننا لقاء ولقاء ، وقص علي طرفاً من حياته ، وروى لي شيئاً من شعره ، فعلمت ان الرجل أهل لكل اكبار وتقدير ، ولمحت الموهبة عنده تسمو تارة فتبدع ، وتنحدر اخرى فتضل !

واحب أن اذكر هنا ان اكثر شعر الجواهري في ديوانه المطبوع القديم نمط فريد قد لا نقع على شيءٍ من مثله في الشعر العربي القديم والحديث الا نادراً ، فهو شعر قد ذهب في تصوير الشباب بغرائزه ولهوه ومجاناته كل مذهب ، شعر سمى الاشياء بأسمائها ، ووضع النقط على

الحروف كما يقول الفرنسيون ، لم يصطنع التلميح الذي يصطنعه الشعر المعهود ، ولم يرمز الى المعاني الماجنة رمزا ، وانما كان شعراً واضحاً كل الوضوح ، عارياً كل العري ، فيه من الغلمة ومن التشهي ومن حاجات الجسد ٠٠٠ الشيء الكثير ! لشد ما يشبه شعره كلام « فكتور مرجريت » عند الفرنسيين ! ان العراق فيما يبدو لي أخصب أرض عربية لظهور « الادب المكشوف » الذي يلامس في بعض نواحيه حدود الاباحية وا كاد اقول « اللاأخلاقية » . ولهذه الظاهرة الواضحة في العراق عوامل واسباب شتى ليس هذا محل الوقوف عند بسيكولوجيتها . وقد كان شعر الجواهري في صدر شبابه صورة قوية لهذه النزعة العراقية في الاستمتاع بجمالية الحياة من ناحيتها المادية ، اجاد في الكشف عنها اجادة قد لا نقع لها كما قلت في الشعر العربي على نظير ولا ضريع

ولكن الجواهري ما كادت السن تخطو به خطاها الوئيدة على التجربة حتى جعل يحتشم ويرصن ويتزمت ،

وحتى أخذ ينظم في أغراض رسمية تدنيه من اوساط الكبراء والعلماء والاشياخ ، وحتى اخذ يصطنع الاسلوب العربي في تصوره للمعاني ، وفي تقاطر هذه المعاني على القصيدة ، وفي طريقة عرضها للقراء ، لا ينطلق حراً مع موهبته الاولى ، أولا تنطلق موهبته الاولى حرة إلا اختلاساً ولماما . واذا كان هذا المساق الشعري والبياني يرضي طائفة كبيرة من القراء في العراق وسوريا ومصر ، فلقد يغضب الموهبة التي عرفناها في شعر الجواهري أول شبابه ، لانه يأسرها على ان لا تجري مع هواها ، تتخيل ما تشاء ، وتبين كما تشاء

وقد حرص الجواهري في مستهل قصيدته عن أبي العلاء في مهرجانه ان يقف بالمعرة يمسح خدها الترب ويستوحي من صاحبها الفيلسوف الحر شيئاً يقوله في هذه المناسبة، فوقف ! أبي حاجة الى ان اقول واستوقف . . ؟ يالهذه الوقفة « التاريخية » التي ما نفتأ نلتمسها منذ امرىء القيس حتى الآن ! جميل ان يجرد الشاعر من نفسه شخصاً آخر يناجيه

ويسقيه الحديث، ولكن الأجمل ان لا يكون هذا التجريد سنة تفرض نفسها على الشاعر او يفرضها الشاعر على نفسه كلما احب ان يطل على النفس في مطلع قصيدته

وماذا استوحى الجواهري من قبر أبي العلاء في المعرة؟

استوحى هذا المعنى الشائع المعروف وهو انه اخذ يسائل المعري عما رأى وراء الموت من حقائق. هل من حياة ثانية بعد هذه الحياة الدنيا؟ وهل تبدلت الروح اللاغبة بأخرى غير لاغبة؟ وهل يعل الميت من فرط ما يطوي في القبر من أحقاب ام انه ليس هناك الى احساسه بالاحقاب وبالالام وبالاجتواء من سبيل؟ اسئلة شتى القاها قبل صديقنا الجواهري شعراء كثيرون وقفوا على القبور يلتمسون من صمتها، ومن البلى الذي يغمرها، حكمة ونوداً وهداية. فمن هنا كان الجواهري لا يستوحي في الواقع حفرة ابي العلاء، وانما كان يتذكر ويجتر ما قيل على الحفر والاطلال الدوارس، على انه في الحق قد صاغه من جديد صياغة جميلة

ليس بعد هذا المعنى الشائع المعروف الذي أوهمنا الاستاذ الجواهري أنه استوحاه من قبر ابي العلاء ، معنى نسجله له بالخير ، ولا صورة ابتعثتها في نفسه ذكرى المعري ، اللهم الا صورة من مزاجه ولمحة من آرائه ، فأما الصور المتخيلة في قصيدة الشاعر فنادرة ان لم نقل معدومة . وهذه الصور بالذات هي التي كان ينبغي للجواهري ان يكثر منها في هذه الذكرى الالفية . فلنتجاوز اذن عن هذا الضعف في الابداع الى ابي العلاء نفسه كما فهمه الجواهري او كما تمثله الجواهري

الميزات الخالدة التي يجملها الشاعر العراقي في المعري ثلاث : حرية الفكر والحرمان والغضب . وهي فيما يرى ميزات اجتمعت لابي العلاء ولم تجتمع لغيره . فرب موهوب ثاقب الرأي « بدا له الحق عرياناً فلم يره » لان غناً حط من فكرته فجعل من يراعه خشباً لا يستطيع ان يضرب به الظلم والظالمين . ورب محروم راض بما قسمت له الأقدار من الحرمان فصبر عليه وبرد نزوله بساحته ثم صور الذل للناس قناعة تموج بالذهب ! فاما ابو العلاء فرجل رأى

الحق فجاهد من أجل فوزه واعلانه ، وكان سبيله في هذا الجهاد تحكيم العقل وحرية الرأي . لم يرض بالحرمان الذي امتحن به فثار في وجه الغاصبين يريد ان ينزع عن حقيقتهم القناع الذي يسترها . وغضب فكانت غضبته للحق والعدل والخير للانسانية جمعاء

وما يصل الشاعر الجواهري الى هذا الحد من تصوير أبي العلاء حتى يهتف هذا الهتاف الحلو يحمد الله به على الهداية ودين الاسلام :

آمنت بالله والنور الذي رسمت ... به الشرائع غراً منهجاً لحبا
وقد حمدت شفيعاً لي على رشدي ... اماً وجدت على الاسلام لي وأبا

هذا الهتاف الحلو المليُ بالايمان والحمد هو من ألطف ما قرأت في قصيدة الجواهري من الشعر ، وطرافته آتية من حرارته الساذجة ولهجته الصادقة ولفظه الخفيف .

وعرض الجواهري الى حب أبي العلاء . والرأي عنده ان المعري بريُ مما نعوا عليه من الفلسفة السوداء التي لا تبتغي لذة ولا تنشد طرباً ، وبريُ مما حملوه من « وزر الذي

لا يمس الحب ملتهباً » ذلك ان أكثر الشعراء صرعى العيون نشاوى من الخود. وهل كان بشار وعصبته سوى حطب لهذا اللظى القوي، لظى الحب؟ فانت ترى ان الجواهري قد عزّ عليه ان لا يكون المعري عاشقاً مدنفاً وهو الشاعر المرهف الحس، السمح النفس، السلس الجانب كما يقول. فهل أحب المعري حقاً؟ هل كان حبه عنيفاً كاللظى؟ ثم هل قال في هذا الحب العنيف شعرا؟ ومن هي التي تيمته من النساء؟ لا يجيب الاستاذ الجواهري على هذه الاسئلة، وانما هو ينحل المعري حباً ما كان اغناه في انتحاله على هذا النحو، فما ينقص من فيلسوف المعرة شيءٌ ان احب او لم يحب. فهو رجل ضرير، شغله عماه وفقره وذهنه ودراساته ورأيه في المرأة عن شواغل القلب ومتاعب الحب. وما كانت نفسه المكتئبة لتجد بين اطوائها مكاناً لهذا المخلوق الساحر الذي يسمونه المرأة، وهو القائل في كتاب «الفصول والغايات»: «اي صديق لي واي نسيب؟ اني في الوطن لغريب. انما انا كرجل بلي بالصدى، لا

يجد ابداً موردا ، فهو ظمآن ابدا » .

اذا كان المعري قد أحب حقاً ، فكيف يفسر لنا الاستاذ الجواهري هذا المزاج السوداوي الاصيل عند الرجل، وكرهه للدنيا واسبابها على ما هو مشهور متواتر .. بل كيف يفسر لنا قوله هو في قصيدته :

وللكآبة ألوان ، وأفجعها ان تبصر الفيلسوف الحر مكتئبا

ليس في قصيدة الجواهري، بعد الذي عرضت عليك ،سوى أشتات من الخواطر متناثرة هنا وهناك لا تجمعها الا وحدة الوزن والقافية ، ولكنها في الحق خواطر حلوة استطاع « الجواهري » أن « يصوغها » في بيان عربي جزل ، هذا البيان الذي يبدو صدقه وجماله وقوته اذا تلوته على نفسك او سمعت الشاعر نفسه يتلوه عليك

فاستمع الى هذين البيتين يخاطب فيهما الشاعر جانباً من قبر ابي العلاء :

يا برج مفخرة الاجداث لا تهني ان لم تكوني لابراج السما قطبا

فكل نجم تمني في قرارته لو انه بشعاع منك قد جذبا

فهنا قبر يتيه على أترابه من القبور لانه يضم رفات امرئ كريم الفكر ، صادق النفس ، وان تكن حاله « وشاهدته » من الهبوط والانخفاض بمكان ! فاي معنى طريف هذا الذي تصوره الشاعر ثم غمره بالاباء والكبرياء !

واستمع الى هذا البيت ايضاً :

نوّر لنا . اننا في اي مدلج مماتشككت ،ان صدقاً وان كذبا

فهنا الانسان في حيرته الكبرى يجهل مما يتحيفه من الحياة وما بعد الحياة كل شيء . يجهل مادة يحملها في جسده ، ويجهل نفسه التي بين جوانحه ، ويجهل قضاء ينزل بساحه ، ويجهل انحرافاً في خط معاشه ، مسير لما خلق له ، ثم يجهل هذا الموت الذي يسلمه الى عالم آخر ، ما هو هذا العالم ؟ أهو من نوع عالمنا ، كد في سبيل العيش فنجاح واخفاق ، ام عذاب في الجحيم ام سرور في النعيم ام حساب بين بين ام فناء في فناء ؟ ليس يدري الانسان مما بعد الموت شيئاً ، كما لايدري مما دونه شيئا ، فهو في حيرة او في شك من الامر كله كأنما هو يتخبط في ظلام دامس مدلج ، وليس

من ينير السبيل ! ولقد رضيت عن هذا الذي أعلنه حين قال « ان صدقاً وان كذبا » فذلك احتياط لا بد منه في امة تؤمن بالدار الآخرة على نحو ما جاء في الفرقان ايمانا قويا

واستمع الى هذا البيت الآخر :

لثورة الفكر تاريخ يذكرنا   بأن ألف مسيح دونها صلبا

فهنا تصوير مركز طريف لشهداء الحرية الفكرية الكثيرين الذين صرعتهم اهواء الجامدين على الزمان فكان لثورتهم المتصلة تاريخ طويل هو صفحة ناصعة متمايزة بين صفحات التطور البشري على الاطلاق

ثم استمع الى هذين البيتين :

على الحصير وكوز الماء يرفده   وذهنه ، ورفوف تحمل الكتبا
أهوى على كوة في وجهه قدر   فسد بالظلمة الثقبين فاحتجبا

ابيات جميلة بلا ريب ، يخالط جمالها كثير من الحزن بلا ريب ايضا . من اين اتاها هذا الجمال الحزين ؟ لست ادري على الضبط ولا الشاعر الذي نظمها يدري ، ولكني نظرت فرأيت مشهداً عادياً مألوفاً طالما وقعت عليه عيناي في بعض احياء حمص المتواضعة الفقيرة ، قد أطل من بين لفظ

خفيف على السمع ، منطلق على اللسان ، هادئ الأثر في النفس . هنالك عرفت من أين جاء الجمال الحزين الى هذه الابيات . جاءها يا صاحبي من البساطة والصدق ! فهنا ابو العلاء المعري كما خلقه الله وبرأته الفطرة : رجل فقير قد ارتضى الحصير بساطاً ، عن يمينه او يساره كوز ماء ، من فوقه على الحائط رفوف الكتب تحمل زاد المعرفة الى هذا الذهن المفكر . وكان ينبغي للشاعر أن يضيف : وطلاب يحيطون به ، ويأخذون عنه العلم . والرجل اعمى ، وعماه من ضربة القدر الذي لايرحم . ان حاسة البصر لسبيل قوي الى المعرفة والتمييز بين الالوان والاستمتاع بالحياة ، فمن فقد بصره صار الى نوع من الحسرة دفين ما يفتأ يعتلج ويتدسس في حنايا صاحبه حتى يصبح حزناً خالصاً كله . والبيت الثاني قد صور هذا الحزن الخالص عند المعري كما صور البيت الاول مقومات حياته في بيان سهل رفيع . فانظر هل ترى في قصيدة الجواهري اجمل من هذين البيتين البسيطين ؟ !



بدوي الجبل

— ٣ —

عصماء ان شهد الندي خطيبها
تركت فصاح القوم غير فصاح
بدهت شواردها العدى بكتيبة
خضراء تلمع بالحديد وداح

بهذين البيتين كاد الاستاذ بدوي الجبل أن ينهي قصيدته التي القاها في مهرجان أبي العلاء ، بعدما طوّف حول العبقرية والفكر والعقيدة والنفس والمرأة وصلة هذه بالمعري ، فكأنما شعر بطول المطاف او شعر بخطورته وقوته وجدواه ، ثم رأى الصدور والأعجاز والقوافي تطاوعه مدىً كبيراً ، وأنس بالمعاني ونقلتها وبكارتها ، فنطق ببيتيه هذين يسجل فيهما رأيه في

قصيدته . وهو ، كما ترى ، رأي الشاعر ، فما رأي الناقد؟

ليس من عادة الناقد ان يسحب على ذيل الشعراء في عجبهم الطاووسي فيرسل مثل كلام البدوي الذي لا ينطوي على اكثر من خيلاء نفس او نزوة مديح عريض قد خلت لأبهامها وابتدائيتها من تقويم اسباب الجمال . انما من عادة الناقد ان يستقرئ ويحلل ، ويجوس خلال البيان مؤثراً ومتأثراً ، ويقرأ فاعلاً ومنفعلا ، ويجمع الذي تشابه ، ويفرز الذي تشابك ، ويصور مكان الضعف ومكان القوة ، ويقفز فوق الدميم ، ويقف عند الجميل ، ثم لا يحكم إلا باحتياط وحذر ، ولا يقرر الا باعتدال ونصفة ، لا يجمجم ولا يبالغ ولا يجور

اذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

وماذا في بيتي البدوي الا ان قصيدته كالظبي تأبّد واعتصم في رؤوس الجبال لا يتطاول اليه اي صياد ، والا انها لفصاحتها تدع من يسمعها ولو كان فصيحاً يجمجم بالكلام ولا يبين ، والا انها لمعانيها الشوارد كالجند وقع على العدى فولوا هاربين ؟ !

أهذا كلام معقول ؟ أهذا كلام له خطورة ؟ أهذا كلام يقال في هذا العصر ؟ ! فوالله لولا انك يابدوي شاعر ، وشاعر له حظ من خيال ونصيب من احسان ، وشاعر يجري في نظمه على طريقة العرب ولا يجرى معه ، لأسمعتك الآن كلاماً ، وهززت فوق ظهرك نقداً ، كنت انت لا شك حافظها لي واحدة ابد الدهر ما دمت على الحياة !

سيمحو الناقد اذن هذين البيتين من دنيا الصواب ودنيا الدقة لا يلقي اليهما بالاً ولا يعبأ بهما حين يستقبل قصيدة البدوي بالعرض والنقد والتحليل ، وسيمضي على نهجه الذي رسمه لنفسه مستقرءاً ومصوراً ، وسيهتف من قلبه للجمال ، ويبتسم بشفتيه للدمامة . . .

فأول ما يلاحظه الناقد ان الاستاذ محمد سليمان الاحمد قال واحد وثلاثين بيتاً من الشعر وهو لا يدري كيف السبيل الى النجاة من هذا المأزق الذي تورط فيه ، وكيف السبيل الى الفرار من هذه المعاني العامة التي تاه بين شعابها . فقد استهل قصيدته عن أبي العلاء بالحديث عن العبقرية ، اي سلطان لها على

الدهر :

الدهر ملك العبقرية وحدها لا ملك جبار ولا سفاح

ثم داز الفكر فاذا هو « كالضياء صراح »واذا الكون له «في اسراره و كنوزه» ثم وصل الى العقيدة ، اي عقيدة ؟ العقيدة الشماء ذات التوثب والجماح فأطال في الكلام عليها وخصها بأبيات عذاب ووازن بينها وبين العقل الذي يثبت ويمحي ، ودل على سكرها « فأين من آفاقه سكر العيون واين سكر الراح ؟ »

ثم رأى « شرف العقيدة ان تكون جريحة » فحوطها بالله « من أذى خرقاء فاجرة اليمين وقاح »

ثم ماذا ؟ ثم افكار وخواطر تدور حول ما قدمت لك من المعاني او تتصل بها من قريب او بعيد، ولا شيء غير ذلك في هذه الابيات التي بلغت واحداً وثلاثين بيتاً ؟

اين ابو العلاء المعري من معاني العبقرية والفكر والعقيدة ؟ لست ادري على الضبط، وان كنت ادري ان الشاعر يريد ان يقول ان ابا العلاء كان عبقرياً وكان مفكراً وكان صاحب عقيدة ، على النحو الذي اشار اليه في كلامه الطويل .

فكلامه الطويل هذا يصدق على ابي العلاء كما يصدق على غير ابي العلاء ايضاً . وهذا هو الذي لا نرضاه لشاعر كبير كبدوي الجبل ، فأنما الكلام العام كالثوب الفضفاض يستطيع كل امرئ اذا علا أواسط الناس وكان ذا موهبة وصاحب رسالة ان يرتديه فيقع منه على قده وطوله وعرضه !

واذكر أني لقد نبهت الاستاذ البدوي الى خطر الابهام والتعميم وفقدان الدقة حين عرضت في أيار ١٩٣٩ الى قصيدته الكبرى في مصرع المرحوم غازي ملك العراق ، ولكنه يعود الآن الى الابهام والتعميم مرة اخرى ، وسيعود الى ذلك في ظني مرات اخر . فليعلم اذن اني لقد نفضت يديّ من اصلاحه وتقويمه ، واني إنما اكتب الآن لغيره من الشعراء !

وما زال الاستاذ البدوي من كلامه الطويل العام في متاهات ومآزق وشعاب حتى يطلع عليه ابو العلاء او يطلع هو بنا على ابي العلاء ، فاذا

أعمى تلفتت العصور فما رأت عند الشموس كنوره اللماح

فلننظر في «أعمى» البدوي ، أي وجه أطل عليه وعلينا ، وماهي

خصائص هذا الوجه الذي مازه الله بشيء من دون الناس. الحق أن أبا العلاء هنا رجل تكشفت له اسرار النفوس، فجلاها ببصيرة نافذة وفكر ثاقب، وصور الدنيا بفظاعتها وبغي أقويائها، وقسا في تصويره، وسخر من طباع الناس وعاداتهم وتفكيرهم حتى ومن عقائدهم! وكان جريئاً في كل ذلك جرأة نادرة المثال عند من كانت له مثل وسائله من العمى والفقر والعزلة وانثلام السلاح.

هذه الصورة الجامعة، صورة أبي العلاء المعري الفيلسوف، قد استوفاها البدوي من اقرب وجه وأيسر سبيل في ثلاثة عشر بيتاً. فيا للشعر العالي، ويا للشاعر المبين!

من راح يحمل في جوانحه الضحى ... هانت عليه أشعة المصباح
وجلا المصون من الضمائر فانتهى ... همس النفوس لضجة وصياح

فاقرأ هذين البيتين كما قرأتهما انا، وأعد تلاوتهما على نفسك، وانفذ الى مطاويها، وتذوق حلاوتها، فستجد انك حيال لون من الشعر المجنح الجميل طالما رغبنا في مثله، وطالما حرصنا على ان يسحب الشعراء على ذيله. وسترى عمل البيان في الخروج بخوافي النفس الى دنيا النور او دنيا الضجة والصياح كما يقول البدوي.

وانما يعجبني البيت الاول لأن صورة « الضحى بين الجوانح » من ارق الصور وأدناها الى الخيال وأعلقها بالجمال ، ويعجبني البيت الثاني لأن كناية « الضجة والصياح » من أبرع الكنايات في الدلالة على الكشف والاعراب . وفي هذا الجانب الذي وقفت بك عنده من قصيدة البدوي ، بيت من الشعر أحب ان أذكره لك الآن ، لا لجماله فما فيه جمال ، ولكن لأشارته الى موضوع هو بيت القصيد ، واليكه :

ضجت ملائكة السماء لساخر ... من الدعابة شاتم مداح

أأبو العلاء المعري شاتم مداح ؟ نعم هو كذلك في نظر البدوي . لقد أطال هجاءه لهذا المخلوق الذي « ضن عليه بعطره الفواح » ولكن خلف هذا الهجاء الطويل « غرد منضرة من الامداح » . وأظنك قد عرفت هذا المخلوق الذى يبغضه أبو العلاء ويحبه في آن واحد ، فهو المرأة :

عطر أحب من المنى وغلالة ... بدع فمن وهج ومن أفراح
هي صورة لله جل جلاله ... عزت نظائرها على الالواح

ويفسر البدوي عداوة المعري للمرأة وكرهه لها بحرمانه من « مليحة »

ماوقعت عليه ولا أذاقته هناءة العيش ، فباعدت بينهما الاقدار ، وبقي « الشراع » وسط العواصف بلا ملاح ! وطوى ابو العلاء شعره على كراهية ، بعدما طوى قلبه على حب . ويمضي الاستاذ البدوي مع هذا المعنى يشرح أثر المرأة في نفس الرجل على العموم، وفي نفس الفيلسوف على الخصوص ، ثم ودّ لو ان أنثى خطرت على حياة المعري ، ومسحت على نفسه ، ودرجت على قرب منه ، ثم نزلت من قلبه الرحيم الذي «لم يضق بالوحش بين سباسب وبطاح» إذن « طلعت بآفاق عليه فساح » وسقته الهموم « بمطرة كالسلسبيل قراح » . ويتساءل عن المليحة « المعوقة » وانما يود لو ينتقم منها انتقاماً تتذكره كل انثى اذا عقت الرجال ، ويذكره المعري نفسه ويفرح له ، ويذكره البدوي ويرتاح اليه . لقد ودّ لو كان في يده زمام الزمان ودورة الدهر ، إذن لأعاد المليحة كما كانت بشبابها وجمالها ، وأعادها في حفل حاشد يغص بالغادين والرائحين ، فيعمد الى فتنتها أو سحر جفونها فينزعه ، والى نور جبينها فيمحوه ، والى عقد ثغرها فينثره ، حتى اذا انتهى من تمثيله فيها وتشويهه لجمالها ،

على هذا النحو من الانتقام الفظيع ، جاءها بمرآة مجلوّة لتنظر فيها ما صارت اليه من الخال والدمامة . يا للصرخة الكلمى ترسلها المرأة داوية ، ويالثأر من ظلم الجمال والانوثة ! هنالك تشمت جراحات وأضاح كانت في الثرى مدفونة ، وهنالك يستشرف البدوي مشهداً بنظرة المرتاح . ولربما رأى المعري يضيق من هذا اللون من الانتقام، لرقة قلبه من جهة ، ولحبه المضمر للمرأة من جهة أخرى ، فلا بأس عندئذ من ان يعلن البدوي له ان الامر كله هزل ودعابة ومزاح !

صورة طريفة كما ترى ، لا تخلو من حسن التصور وبراعة التصوير ، ولعلها كانت اروع ما ابدعه البدوي من الصور في هذه القصيدة التي عرضت لها في شيء من السرعة، فانما كان ينبغي أن اقف عندها اكثر مما وقفت ، لولا ان صاحب المجلة حدد لي الصفحات ، وصاحب المطبعة أعجلني في الوقت . فلأسجل إذن ملحوظتين لا بد منهما قبل ان أطرح القلم . الاولى ان البدوي قد اشار الى الوحدة العربية الكبرى إشارة موجزة خاطفة ، لاسيما وقد تهلل فجرها كما

يقول في عهد السيد شكري القوتلي . والثانية هذه القافية التي تلتوي تحت قلمه بين حين وحين ، فيضرب فيها ان لم أقل يتقعر ! فالحق ان « الجحجاح والصحصاح » وامثالهما من القوافي المتأبدة لم تعد تصلح اليوم عند ابن العصر ، وكانت قد صلحت قديماً عند ابن الصحراء ، فنفر منها الآن هذا الذوق الرهيف الدقيق الذي يتقبل كل شيءٍ الا امثال الجحجاح والصحصاح ! فكم بين هذي القوافي وبين « التفاح » من بون في بيت البدوي الرقيق :

ياظالم التفاح في وجناتها　　　لو ذقت بعض شمائل التفاح

فهنا عتاب ناعم يوجهه الشاعر لأبي العلاء فيما تجنى على المرأة من نقد . وهنا إغراء جميل على محاسن الانوثة . وهنا ، فوق ذلك ، الفاظ خفاف ، ومسرى حلو ، ونغم لطيف ، وشعور — على انه سطحي وابتدائي وجماهيري — لا يخلو من شيء من الأحساس بفتنة المرأة وسحر الجمال .

— ٤ —


محمد البزم

طويلة ، طويلة جداً ، حتى لتحسبها ملحمة او معلقة ، وحتى لقد نشرتها صحف على أعداد ، وابت أخرى ان تنشرها . وانت تقرأها فتشعر بالجهد المبذول لها وبالوقت المصروف عليها والاحتفال لقوافيها والفاظها ، ولا اقول لمعانيها ، وبارادة مطها وتشقيق ابياتها . فما تشك في ان الشاعر قد اراق بسبيلها عرقاً كثيراً وحمل على نفسه الشيخة فأضناها قبل النظم وعند النظم ، وما تشك

في أن «معاجم اللغة» كانت حينئذ الى جانبه أو في رأسه ، لا أدري والله . فهل وراء هذا « الكم » المخيف « كيف » جميل ؟

قد كنت أوثر أن لا أعرض لهذه القصيدة الطويلة بخير ولا بشر ، وان لا أضعها تحت مبضع النقد في جملة ما اضع من الشعر الذي ساقه اصحابه في مهرجان أبي العلاء المعري . فان عنّ لك أن تسألني عن سبب هذا الأيثار ، وعلة هذا التجاوز ، فاعلم ان الاستاذ محمد البزم شيخ كبير ، قد ألحت عليه الشيخوخة بضعفها ومرضها، فما يصير الينا في الطابق الثالث من سرايا المرجة إلا متداعياً حائل اللون يكاد من الاعياء أن ينقضّ على أول كرسي يصيبه فارغاً . وللشيخوخة المتهدمة جراحات في قلب صاحبها ما تفتأ تنغص عليه العيش ، وتزيد في همومه ، وتضخّم من وساوسه ، وتحمله على أن يستقبل الحياة عابساً كارهاً . وهذا إلى أن البزم يعالج في هذه الايام مع الحكومة الوطنية قضية معقدة تتصل بتقدير جهوده في التدريس ، وتمديد خدمته في المعارف ، وهو معنيّ بهذه القضية محتفل لها ، قد أهاج صحف العاصمة للكلام فيها ، وكان له إلى هذا وهذا تدبير

ووساطة وشفاعة . والأمر جد كما يرى : فالراتب ضئيل ، والغلاء شديد ، والأسرة ضخمة . ولهذا كله هموم فوق هموم السن ، وآثار كآثار الشيخوخة . وما أحب أن اضيف انا ايضاً الى هذه العوامل مجتمعة عاملاً ربما كان في نظر الشاعر امرّ من تلك وأوجع ، واعني به نقد هذه القصيدة الطويلة التي بذل لها الجهد والوقت حتى ليحسبها فناً خالصاً وآية ما تطاول الى مثلها شاعر قبله في القديم ولا في الحديث !

بلى ، قد كنت أوثر أن أطوي رأيي في قصيدة الاستاذ البزم ، لأن رأيي فيها لا يرضيه ولا يسره ، ولربما نكأ جراحاته وابتعث آلامه ، فما يزيد الطين اذن إلا بلة كما يقولون. ولكني نظرت فرأيت قصيدة البزم من القصائد التي قيلت في مهرجان ابي العلاء ، وانا الآن بسبيل التحليل لهذه القصائد واحدة بعد اخرى ، قلت في طائفة منها كلمتي ومشيت ، وها انذا اصل الى قصيدة البزم . فلا بد اذن من أن ارسل القول فيها رضيت ام ابيت ، احب البزم أم كره . ثم نظرت فرأيت أن الحق أحب اليّ وآثر عندي ، وأدنى الى قلبي ،

من البزم وشعر البزم ، وأنا من طلاب المثل ، ورواد الحقائق ، لا أبالي في سبيل الوصول اليها شيخوخة وان كانت محترمة ، ولا ألماً وإن كان عظيما . ثم نظرت ايضاً فرأيت ان آثار الشعراء والادباء اذ ينفضون أيديهم منها او يرسلونها في الناس لم تعد ملكاً لهم ولا وقفاً عليهم ، وانما تصبح ملكاً خالصاً لهؤلاء الناس وحقاً من حقوقهم المكتسبة ، يقولون فيها ما يشاؤون ، ويحكمون لها او عليها ، لايتأثرون بأصحابها فيما يقولون ويحكمون ، فقد دخلت حرم التاريخ ، ومن دخل التاريخ كان له عبدا ...

ولعل قصيدة البزم أيسر أثر يمكن ان يتعرض له الناقد بالتحليل في حياته . فهي في الواقع تدل على نفسها وتفضح حالها من اول بيت او اي بيت يقع عليه النقد فيها ، وبمجرد تلاوتها من القارئ تبرز الخصائص التي قصد اليها صاحبها : اثبات القدرة على النظم ، ولا اقول الشعر ، وشيء يريد أن يسميه « فحولة المعاني » والاكثار من الالفاظ الغريبة التي يعدها ثروته اللغوية ، وتقليب القوافي على صفحات المعجم من اوله لآخره ،

والنية المبيتة في التطويل ، كأنما كل ذلك خصائص ترفع رأسه وهو منخفض ، وتعلي من شأنه وهو خامل ، وتحيي شاعريته وهي ميتة !

استهل الاستاذ البزم قصيدته في ابي العلاء بتحية يوم الشعر ، ويعني المهرجان قال :

اجل هو يوم الشعر تطغي عباقره   وتملا اسماع الخلود منابره
مشى مهرجان الدهر فيه مباهراً   تخفت له الافلاك نشوى تباهره
وقام جلال الحق يسعى واقبلت   وفود النهى من كل صوب تسايره
وودت دهاقين القرون لو انها   ميامنه في جيشه ومياسره
ولولا حياء الليل نصت مواكباً   عذارى الدجى في حشده وحرائره
ثوى وبه من سدرة الخلد سدة   يلوذ بها ناهي الزمان وآمره
شهاب تحاماه الرجوم وساطع   من الفجر مغمور به من يناكره

وما نقلت لك التحية كلها فهي طويلة . فهل ترى لها « عرضاً » يتفق و « طولها » ؟ هل ترى لهذه التحية من معنى الا انها مناسبة يجب ان لا تفوت الاستاذ البزم ليقول نيفاً وبضعة عشر بيتاً ؟ ثم هل فهمت من التحية شيئاً اكثر من التهويل والمبالغة ؟ وهل

عرفت كيف يمشي مهرجان الدهر مباهراً في يوم الشعر ؟ !

فاذا خلصت من التحية على النحو الذي شهدته ، فتعال معي أطلعك على المعري نفسه كما يصوره الاستاذ البزم :

هو الشاعر الأعلى فمن ذا يكابره ... وقد طبق الدنيا فمن ذا يفاخره

له يقظات توقظ الوقد في الصفا ... وتبعث ميت الروض يهتز ناضره

وجذوة طبع تترك البحر مارجاً ... ويبصر فيها الليل أين مخاطره

وطبع علا السبع الطباق فأسلست ... له رهبة او رغبة لا تماكره

يطأطىء من تيه الكواكب وادعاً ... فتعنو له طوع الهوى لا تعاسره

ما اظنك فهمت من ابي العلاء شيئاً عن نفسيته وخصائصه وروحه. فهذه أبيات عامة تقال في اي شاعر عربي أو غربي، بل هذه أبيات من الابهام والتعميم بمكان لا تستطيع معه ان ترى جانباً من وجه ابي العلاء ولو تكلفت لذلك ألوان الفطنة وطرائق التفكير . فهل تكون هذه الابيات « توطئة » لشيء ذي خطر وشأن ؟ ان يكن ذلك ما يخطر ببالك ، فاستمع الى هذه الابيات الاخرى :

تأنق في اكليـل مجدك ضافره ... فرفت على هام العصور ضفائره

ولو ملكت زهر النجوم قيادها لأهوت اليه النيرات تصاغره
تهاداك اعناق القرون فتارة نهوضاً واخرى يدرك الجد عاثره
وما كنت الا الشمس ان غال عارض سناها فمن وشك يبدد غامره

افرأيت شيئاً مما كنت تتشوف اليه ؟ ؟ لا اعتقد ، واحسب انك لست ببالغ وجه ابي العلاء ولو عرضت عليك المشرات من ابيات القصيدة . فهي على هذا النحو الذي لمحته من الكلام العام المبهم الذي لا تفيد منه شيئاً ، ولا تخبر به شيئاً ، لا استثني من ذلك الا سانحة عرضت فأرسل فيها البزم ابيات عن العروبة او « العرباء واليعربية » كما يحلو له ان يقول . وإلا إلمامة صور فيها هذا القلب الرحيم الذي يواسي الحريب ، ويأسو الجراح ، ويشفق لبرغوث ، ويسامح ذئب الفلاة ، ويأبى ان يأكل من لحم الدجاج . والا ابيات ثلاثة اشار فيها الى « رسالة الغفران » فأحسن وأجاد ، فرائعة المعرى سياحة طويلة ممتعة لا تخلو من هول ، صورها منشئها كأنما قام بها او « عمرها » كما يقول الاستاذ البزم ، لفرط المشاهد الحسية التي رآها ، ولبراعة الاخيلة الطريفة التي قفزت لعينيه .

من المفيد ان أقف عند هذ الحد من قصيدة البزم . لقد أرهقته فيما أرى مضطراً ، كما أرهقني وأرهق نفسه من قبل

مختاراً . والناقدون من قديم يشفقون مع بعض الشعراء والأدباء، لأن هؤلاء لا يحبون أن يسكتوا فيريحون ويستريحون ! ويجب أن تعود الى قصيدة البزم في المجموعة التي أصدرها المجمع العلمي العربي بدمشق ، وضمت كل ما قيل في المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري ،لترى مقدار الطاقة عند أعصابك في الصبر على مثل هذا الضرب من القريض ، ولترى مصداق الصورة التي أعطيتك ، على ألم ومضض ،إطارها وخطوطها

وإنه ليؤسفني حقاً ان يكبو جواد البزم في قصيدته التي ساقها في « يوم الشعر » . ويظهر ان الشاعر على علم بكبوته هذه فأحب ان يحتاط لها أو يعتذر عنها لدى قارئه فقال :

تناهبت الادواء ذهني فلا تسلم   يراعي فقد ندت عليه ضرائره
وأخمدن طبعاً كان مرتاد قابس   ونجعة مغوار تلظى مخامره

إنني أريد أن أقبل من الأستاذ البزم عذره ، وأن أحيي فيه هذا التواضع الجميل ، ثم أرجو بكثير من الأخلاص ان يستأنف نشاطه التدريسي في خدمة الجيل الصاعد الذي توفر على تثقيفه في النحو واللغة سنوات طوالا .

— ٥ —


عمر ابو ريشة

أنا وأنت الآن مع عمر ابو ريشة في قصيدة عامرة بألوان من الاحساس المتصل بجذور الحياة، وبضروب من الصور المحبوبة على خوافي الوجود، وبأبيات من الكلام المغمور بجمال الشاعرية . لا تقل إني أبالغ او أجامل او أمدح ، فالقصيدة بين يديك فابسط نفسك عليها او دعها هي تبسط نفسها على نفسك ثم قل لي أفما نموت على عالمك ،

فلسفة تتخطى الحس وتسمو وراء المادة

وطرت بخيالك ، أتشمل الكون والحياة والانسان بهذا النظر الفلسفي العميق الذي يتخطى حدود الحس ، ويستشف ما وراء المادة ؟

لملم عمر ابو ريشة قواه ، وضم اجزاء نفسه ، ثم ارسل الضوء على ابي العلاء المعري ، أرسله عليه ساطعاً كاشفا . فماذا رأى ؟ رأى ان « الفيلسوف » هو الاصل في هذا الرجل الكبير ، فأحبه وهتف له ثم رمى بنوافله في الظل وما يلي الظل ، وكانت له مع الفيلسوف في شخص ابي العلاء وقفات بارعة ، فيها خفة اللفتة وقوة الفطنة ، ودقة الفكر ، فما تركه الا وقد نفض جملة حال الفيلسوف بكل ما تنطوي عليه جوانحه من شك وايمان ، ومن يأس وحب ، ومن انطلاق نحو الحقائق والاغوار ...

وما أحب عمر ان تتردد انت على باب « ما وراء الطبيعة » هذه الدنيا الواسعة التي قذفك في متاهاتها المتشعبة الغامضة ، فأسلمك « المفتاح » وقال لك ادخل !

ملعب الدهر ... نعم ملعب الدهر هو المفتاح . خذه اذن وافتح به الباب الموصد أو فدعني انا افتح ما أغلق من دونك

وأبو العلاء في قصيدة عمر هو الانسان، كل انسان، في كل زمان ومكان. في نفسه الحنين الى «المجهول» الذي لا يراه ولا يدركه، في نفسه الشوق الى ان يرى «الوجود» منهتك الستر عريانا. وما زاده الى المجهول والوجود الا الظنون والفروض والاخيلة، فمن دون ذلك اذن «ضباب» يحيط به كثيفاً ثقيلا، فما توغل ركائبه الا في زحمة الدروب فاذا هو يرجع الطرف خاسئاً حسيرا:

أتريد الوجود منهتك الستر يرينا اسراره عريانا
ويفض الفدام عن قلبه السمح ويجريه للعطاش دنانا
لو بلغنا ما نشتهي لرأينا الله في نشوة الشعور عيانا

ليس من سبيل اذن الى أن نعرف ما وراء هذا العالم او ما وراء هذه المادة، فدنيانا مغلقة لا يمكن ان ننزع عن فمها الفدام حتى نكون مع الله سبحانه وجهاً لوجه. وتلك صوفية عرفناها من قديم تجعل الله روح هذا الوجود الذي نضطرب بين ظواهره! وما نحن ببالغي قلب الوجود ولا سره، لأننا من نسج التراب ومادة الارض. وهل بلغه أحد من قبلنا؟

نشطت قبلنا مواكب شتى وترامت خضيبة خذلانا

وخـفيُ الوجـود ما انـفك لاينبض قلبـاً ولا يرف لسانـا
طلبته عـين الخيـال ولما لمحتـه . تكسرت اجفـانـا

فهنا ركب الانسانية المفكرة يطل من اليونان مع «افلاطون»، ويمر على المانيا مع «كانت»، ويقف عند فرنسا مع «برغسون». ويحاول ركب الانسانية المفكرة ان يعرف بالروح والعقل والحدس ميكانيكية الحياة وان يدرس بالدين والعلم والفلسفة «ما وراء الطبيعة» فلا يحقق شوقه، ولا يكشف عن مجهوله، فيقعد خذيان فاشلا. ولقد وقفت عند هـذه العين البصيرة او «عين الخيال» كما يسميها الاستاذ عمر، فاذا هي ما تكاد تلمح السر من بعيد حتى تخفض الطرف مكسرة الاجفان ، فرثيت لها واشفقت عليها ثم ايقنت ان اليد حقاً قصيرة!

وجال ابو العلاء في ملعب الدهر وانطلقت فيه روحه ، فما افاد شيئاً ولا اطمأن الى شيء ، او قل لقد اطمأن طوراً وارتاب طورا

بـين شـك مروع ويقـين مطمئن ما بأتـلي حيرانـا
وهـو في حالتيـه قيثـارة زهراء تروي نشيدها الفتـانـا

هذه القيثارة الزهراء التي روت نشيد الريب والايمان مدى ثمانين عاما، والتي تقطعت اوتارها آخر الامر بقوس الحقيقة، قد أحب عمر ابو ريشة ان يسألها طائفة من الاسئلة عل "عندها ما يبل أوام الحي ويروي غليل من خلفت بمدها على الارض: كيف ألفت العالم الذي صارت اليه، وهل امحت كآبتها، وتردت احزانها واهتدى خاطرها، ورضي جنانها؟ ما سمع عمر جواباً، ولا رأى الا صمتا... هنالك صرخ الصرخة الحزينة اليائسة فقال:

علم الوهم نحن صغنا رؤاه واردناه أن يكون فكانا

فهذا كل اليأس وكل الالم اللذين يتخبط بهما عمر منذ سنوات. فما من ريب في ان شاعرنا الكبير الصغير امرؤ لم يطمئن بعد في الطريق السوي الذي يحبه ويرضاه، فتحيفت نفسه الهموم والاحزان، وكان له من ألمه الملح الضاغط مادة وثروة للغناء في الشعر. وهنا أيضاً، وأعني في البيت الذي رواه عمر او رويته له، الوأسال الوحيد الذي يشيعه في كل قصيدة نظمها وينظمها، فمن «رؤى الوهم» يستمد ابو ريشة صوراً واخيلة هي قوام شعره كله، ما جمع منه في ديوانه المطبوع وما لم يجمعه. ولهذا الوأسال اولهذه

الرؤى نتائج ذات خطر قد أعرض لها في مناسبة غير هذه المناسبة حين أحلل شعر عمر الذي نظمه في السنوات الاخيرة. بل ان هنا، وما زال في البيت المذكور، كل كبرياء عمر التي ينشرها على كل من يتصل به من قرب او بعد، والتي كان لجريدة «الايام» الدمشقية أثر كبير في اشاعتها بين عطفيه. وقد غلا عمر في زهوه و كبريائه، وما أحسبه الا سيبقى غاليا. ولربما كانت هذه الكبرياء وليدة الثقة بالنفس، والشعور بالقوة، والاحساس بالامتلاء. فالحق ان عمر ابو ريشة قد صور في شعره «عالم الوهم» اروع تصوير، لقد اراد عالم الوهم ان يكون .. فكان!

كبريائه

ويقف الاستاذ عمر عند ابي العلاء المتشائم ليقول له:

أمن الحب ان تدار عليك   الكأس ملأى وتنثني ظمآنا؟

فالحياة هنا امرأة تتصبى كل رجل، وتقف له في كل منعطف، تتبرج له مغرية فتانة، وتعطيه من نفسها وجمالها ما يذوق به طعم الهناءة وراحة النفس. فما لأبي العلاء يبغضها، وينفر منها، ويصورها للناس في صورة الشمطاء الدرديس التي لن تصيب منها خيراً، ولن تجد عندها سعادة ولا أمنا؟

هـذه الدار كم سئمت بهـا العيش وكم ذقت مرهـا الوانـا
فطويت الايـام في عزلـة الرهبان لم تحسب لها حسبانـا
قد تجف الحياة ، الا وريداً وبضيـق الوجود ، الا مكانـا

لا أريد ان اناقش الاستاذ ابو ريشة فيما ساقه من لوم أبي العلاء حين اعتزل الناس وفزع الى بيته ، فقد كان الرجل استاذاً يختلف اليه طلاب العلم ورواة الشعر ، وكان متصلاً ببعض احداث عصره السياسية حين أنابه قومه عنهم للقـاء صالح بن مرداس . واذن فلم تكن عزلة ابي العلاء دقيقة ولا كان محبسه بالسجن كما يرى عمر مع بعض القراء . انما كان ابو العلاء متشائماً سوداوي المزاج كارهاً للحياة واسباب الحياة . ومصدر هذه الماليخوليا عوامل فسيولوجية كعسر الهضم من فرط ما اكل العدس والتين الجاف ، وعوامل نفسية تعود الى مزاج خاص والى ما اصابه في بغداد من مهانة والى ما أصاب عصره من فساد واضطراب في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية ايضاً . وقد وصف الاستاذ عمر هذا الفساد والاضطراب ببضع ابيات صادقة لولا بيت واحد لم يكن صادقاً ولا لائقا ! وتوفرت للمعري هذه العوامل ثم زاد عليها من عنده فالزم ما

لا يلزم وطلع على الناس بضرب من الحياة أدنى الى ان يكون امتحاناً لصبره وقوته منه الى اي شيء اخر. ولكن تساؤل عمر تساؤل شاعر شاب لا يزال يأمل ويحلم ويتخيل، وحق له ان ينكر فلسفة المعري القائمة على تشهير الدنيا والغض من جمال الحياة، فانما يحب عمر لو يهيم مع اللذاذات واحدة فواحدة لايدعها الا بعدما يأتي عليها ويشبع منها . . .

وأريد ان اقف عند هذا البيت الجميل :

قد تجف الحياة ؛ الا وريداً ويضيق الوجود ، الا مكانا

فهنا ايمان الشباب بأن الحياة سخية خصبة، مهما يبست اوراقها فلا بد من ورقة خضراء يستطيع المرء ان يعيش في ظلها الرطيب عيش راحة واطمئنان، وبأن الوجود متسع متنائي الاطراف، مهما ضاقت رحابه فلا بد من زاوية يسكن اليها الانسان ذاكراً مستعبرا .. فالبيت كما ترى جامع مضروب على طريقة العرب في الامثال والحكم. ومن المفيد ان أذكر للصديق عمر أن شوقي امير الشعر في العصر الحديث، قد قال قبله في « مجنون ليلى » بيتاً يشبه بيته من وجوه، وهو :

قد يهون العمر، الا ساعة   وتهون الارض، الا موضعا

فهنا ايضاً ثقة لا حد لها بخير العمر واتساع الارض، ان تقطعت اسبابهما بالمرء فهنالك ساعة وهنالك موضع يذكرهما ويرددهما كلما حن الى اليفه واستعرض ماضيه. فبيت عمر وبيت شوقي متشابهان كل التشابه، متشابهان في الفاظهما، متشابهان في معناهما! فأي البيتين اذن مأخوذ عن صاحبه؟ وايهما أجمل وأروع؟ لا أريد ان اقطع انا بالجواب الواضح، فالترجيح متروك لذوقك وفطنتك، ولفهمك فن البيان وفلسفة اللفظ. وحسبي الان اني أثرت شوقك الى البحث والموازنة، على ضوء مزاجك وثقافتك وصراحتك!

وانما أهجت فيك روح الدرس والمقارنة، من زاويتك انت، لأنني احب ان تشركني فيما قمت انا من تحليل لطائفة من الشعر السوري، حتى لا أسير وحدي في طريق لعله من احوج الطرق إلى المشاركة بين الكاتب والقارئ، ليظلا على لقاء وتعاطف، بالفكرة والاحساس، وليكون النقد عملاً مزدوجاً بين طرفين، وأثراً مستمداً من فريقين. فانما يكتب الكاتب لغيره قبل ان يكتب لنفسه، وانطباعات القارئ جزء من فن الاديب لا يكتمل إلا بها، ولا ينضج إلا في مطبخها...

— ٦ —



شفيق جبري

أتدري ؟ هذا شفيق جبري يطل عليك بخياله المخضرم ، وروحه الشاعرة ، وصوته الهادر ، في نهاية هذه القافلة الكريمة من شعراء المهرجان ، وكأنما جاء الآن ليشعل الناس ثورة ، او ليتمم رسالة الفكر ، او ليختم الشعر بشعر يدل عليه كما تدل بصمة الأصبع على الأصبع .

وسنسير مع قصيدة الختام كما سرنا مع القصائد الأخر : نعرض ونحلل ، لا نجود ولا نبالغ

وأنت لو كنت مكان الاستاذ جبري ، ورأيت الوفود العربية تجتمع في سوريا من كل الاقطار لتكرم أبا العلاء المعري في ذكراه الألفية ، أفكنت تقول في جلال المهرجان وجمال الذكرى الا خواطر وصوراً قريبة مستمدة من حاضرك او حياتك ؟ ولكن شفيق جبري ، وهو يتمثل الحفل المحتشد حول ابي العلاء ، يقفز به الى الماضي خياله العائش عليه ، ويعود الى حافظته على الفور ، يفتش عما رسب فيها من صور الحياة العربية في مجدها الغابر ، فيتساءل في شيء من البراعة والطرافة :

أهشام على السرير وعز الملك يطوي لمع الضحى لمعانه
ام وفود الحجاج تطري فتاها وابن مروان وارف سلطانه
ام خيال من آل جفنة كالفجر بغني بطيفه حسانه
فكأن النعمان قد حشد العرب وكسرى زاه به ايوانه

فهنا صور ، على انخطافها كالفلم السينمائي ، ترسم جانباً من مجد العرب في الحيرة والشام قبل الاسلام ، وجانباً من مجد الملك العربي ايام الامويين بعد الاسلام ، فكأن السلطان الذي كان لأجدادنا في القديم يتمثل الآن شديد السنى ، مشرق

الوجه ، وارف الظل ، في هذه المناسبة الادبية الكبرى : مهرجان المعري . فهل عرفت مادة التصور وطبيعة الخيال عند جبري ؟ بل هل عرفت بأي سبيل يتوسل الاستاذ جبري لبعث الروح القومية ، في النفوس الهادئة الهاجعة ؟

والحق ان الشاعر جبري من هذه الناحية صوت من أقوى أصوات الشعر والنهضة في سوريا الحديثة ، قد تغنى مع بعض اتراب له من الشعراء بأمجاد الامه العربية اغنياتٍ حساناً ما يزال رنين وجعها يدوّي في سمع الدنيا العربية ، وهو القائل :

قسماً بالحمى وما نسج الفجـــر عليه فلألأت أحضانه
ليس يفنى شعب تغنى بماضٍ ملأ الدنيا نعمةً عنفوانه

وجبري يرى في الشعر قوة الاداة في بناء القومية ، كما يرى فيه قوة الاداة في هدم الفاسد من نظم السياسة ، لأنه«ثورة من صميم القلب» .

وهدي في الانام يلمح كالصبـــح فتمشي بضوئه عميانه
اي سمع لم ينبسط لأغانيـــه وقلب ما هزه تحنانه

ويتحدث الاستاذ جبري عن أفاعيل الشعر في النفوس ،

ويقلب هذا المعنى على وجوهه ، ويتبسط فيه شارحاً ومذكراً ومقدرا ، حتى ماينتهي منه الا بعشرين بيتاً من اقوى الشعر وارقه في آن واحد . فاذا خلص من المعنى خلص منه بخاتمة يصح ان تكون دستوراً للأمة الناهضة في تقدير الشعراء ورجال الفكر على العموم :

لا يعز الله العزيز رجالاً لم يكرم في ظلهم فرسانه

اما ابو العلاء ، فجبري يرى فيه خاتمين : الرقة والقوة . فهو تكوين هندسي وديع ، ناعم الحس ، رحيم القلب ، وان بلي هيكله وهدّه الضعف :

هيكل من نعومة الحس بال لم يطقه من البلى جثمانه
واديم مرمرم هدّه الضعـــف فكادت تمجه أردانه
ذاب حتى تخاله الدين وهماً أمن الوهم شفه ذوبانه ؟

فهنا صورة رقيقة وتصوير أرق ، وفق فيهما الاستاذ جبري الى ابعد حدود التوفيق . ولست ادري اذا كان في مكنة شاعر من الشعراء ان يرق هكذا حتى يذوب . . .

على ان ابا العلاء من جهة اخرى رجل متمرد ناقم ، شديد على الظلم والظالمين ، قوي على الفساد والمفسدين ، له « عصب

ثائر ، وفكر لم يتئد هيجانه »

لو أصابت ملكا عضوداً قوافيــه لمادت من وقعها أركانه

أرأيت كيف اجتمعت لأبي العلاء الخلتان : رقة النفس وقوة العقل ؟ هل عرفت من أين جاءت مكانة أبي العلاء بين الشعراء ؟ وهل أدركت لماذا كرمت الشام رجل المعرة الضرير ؟

وابو العلاء ، على ما كان يجيش في نفسه من رحمة وثورة ، قد عاش عيشة بسيطة قنوعة لم يتطاول الى بهجة الترف وزهو النعيم ، وكان حسبه من الحياة حس ينبض ، وشعور يرف ، وفكر يجول . ما أشبهه في بساطة العيش بالطير ... له ذرى الشجر والفضاء !

ما رفيف القصور ، ماترف السلــطان ، ماتاجه وما صولجانه

رب كوخ اشهى اليه من القصــر وان ماج انسه وقيانه

لقد انطوى ابو العلاء على نفسه في بيت متواضع من بيوت المعرة ، يرسل بصيرته في خلائق هذه الدنيا التي تضطرب من حوله اضطراباً أنانياً غريزياً . وبصيرة المعري

نافذة ملؤها الفطانة والنور

لم يضره فقد النواظر فالقلب بصير تفتحت اجفانه

والاصل في المرء البصيرة لا الباصرة. كم من مبصر أخطأ الطريق، وتاه في دجى الحياة، على ما له من أحداق مفتحة وأعين رائية

كم بصير اعمى الجنان اذا ام سبيلاً، ضل السبيل جنانه

نظر المعري الى الدنيا من خلال بصيرته، فماذا رأى؟ رأى دنيا لا تسير على هدى، ولا ترعى ضميراً، ولا تصير الى حق، فهي من عوجها وانحرافها تتردى في خلق وضيع خسيس قوامه اللؤم والكذب والخبث والغباوة

فترى اللؤم اصفر اللون يخفي نهشة الموت والاذى ثعبانه
وترى الكذب جائلا في مداه ثم تغدو قصيرة شطآنه
وترى الخبث ثعلباً يتلوى لم يطل مكره ولا روغانه
وبظل الغبي بالزهو يهذي ما زهو الغبي، ما هذيانه؟

فهنا عرض جميل، جميل جداً، لأشياء قبيحة، قبيحة جداً. أرأيت «الفن» ما مهمته وما مادته؟ ليست دنياك ياصاحبي ولا

دنيا المعري ، بالدنيا الحلوة التي تحبب اليك ناسها ، وهم كما عرفت بنفسك اصحاب سلوك شاذ قائم على جلب المنفعة واللذة ، ودفع الضرر والالم ، من طريق اي طريق ! وما كانت الاديان لتتنزل على الارض ، وتوضع على النفوس ، الا لتؤطر سلوكها الشاذ بأطار المعقول والطبيعي والجميل . وقد هذبت ما هذبت ، وصقلت ماصقلت ، وظل الانسان مع ذلك لايعمل للآخرين ، ولا يتحسس بالغيرية ، الا من خلال نفسه ، وعلى ضوء مصالحه ! إن أباك الذي تزعم أنه يؤثرك على نفسه ، ويحبك الحب العظيم ، لمستعد أن يدوس كرامتك وينحر حياتك اذا رأى نفعه ولذته . . من طريق زوجته التي خلفت أمك .. وان اخاك الذي ترى دمه من دمك ، لمستعد كأبيه ايضاً ، ان يتنكر لك ويسرق مالك.. اذا بدا له انك عقبة في طريق تحقيق شهواته . . فانظر أية دنيا قذرة هذه الدنيا المترعة بالخسة واللؤم والكذب والخبث والغباوة . . . !

ولكن دنياك هذه القبيحة ، انما تحلو في عينك ، وتقبل عليها بقلبك ، اذا وصفها لك الواصفون ، وعرض لها الفنانون ،

فترى اللؤم أصفر اللون ، وترى الخبث ثعلباً يتلوى . . . فاذا أنت من الفن في جو ناعم فتان ، وكأنما الدنيا في نظرك غير الدنيا ، والناس غير الناس :

يهرم الدهر والتصاوير باق ... سرها لا يمسه حدثانه

وما تكاد تترك تهاويل هذا الفن السحري ، وتنفلت من اساره وجوه ، حتى تعود الى الدنيا التي من حولك ، فتعود الى الناس الذين عانيت من اخلاقهم ما عانيت ، وكابدت من غرائزهم ما كابدت ، فكأنك مع الاستاذ جبري تهتف هذا الهتاف الصادق الحار :

فسد الخلق من قديم الليالي ... واستوت في فساده ازمانه

فكأن الانسان في الغار من ام ... س ولم تنخسف به غيرانه

بلى ! فسد الخلق من زمان . . . فكأن الانسان كجده في الغار كما يقول جبري ، أو كأن الانسان « قد جاء من مكان سحيق يحمل الينا صورة رهيبة من انسانية الغابات والمغاور ، تعيش فيه عبقرية العروق الاولى مرة اخرى ، فيحتفظ منها بغرائز ظن انها اندثرت وماتت ، وعنده ألوان من الكيد

والمكر لا تعرفها بصيرتنا المدبرة » كما يقول الكاتب الفرنسي « أناتول فرانس » في كتابه العظيم « حديقة أبيقور »

كيف السبيل الى اصلاح هذا الخلق المفسود ؟

ليت نوحاً على السفينة، والكو ن غريق يعمه طوفانه
فلعل الايام تأتي بجيل لم تروع سخاله ذؤبانه

ذلك هو جواب الاستاذ جبري ، الشاعر الذي يحلم ... ألا ليت « ليت » جبري تنفع ... ليتها تنفع !!

أفلا نشهد الزحام على الأر ض وهذي جروحه وأمانه
كم بكى الجن والأناسي من هو ل ألحت عليهما اشجانه
لم يبدل غرائز الناس علم بدل الأرض والسما ميدانه
وعظ الواعظون منا طويلاً ما شفى وعظهم ولا برهانه

— ٧ —

هذه إن شئت خاتمة الدراسة ، وان شئت مقدمتها ، فهي الغاية منها ، على أي حال ! فما سقت لك الصفحات التي قرأتها ، وما عرضت للشعر الذي رأيته ، إلا لأروز هذا الصوت الذي انطلق مجلجلاً في مهرجان أبي العلاء . أهو الصوت الحق الذي ينبغي ان يدوّي ام هو صوت في الاصوات و كفى ؟ أفي الصوت المنطلق صفاء أم فيه كدورة ؟ أله رنين كرنين الفضة على الحجر ، أم له طنين كطنين الذباب في الشمس ؟ هل يلحق الشعر في مهرجان ابي العلاء بركب الشعر العالمي الأبداعي ام يلحق بركب الشعر العربي الأتباعي ؟ أكان الشعراء الذين أنشدوا — على هدىً من الشعر ، واساس من النفس ، وبصر بالذكرى ، وفهم للمعري ، أم كانوا كمدلجين خابطين في الظلماء ينظمون ما

واتهم الألفاظ من المعاني ، لا يبالون بسمط القصيد الذي نظموه اي موقع وقع ، ولا اي غرض اصاب ؟ . . .

الى الأجابة على هذه الاسئلة ، وعلى غيرها قريب منها ، قصدت من وراء هذه الفصول التي قدمتها بين يديك . وقد عرضت فيها لكل قصيدة من اكثر جوانبها المقوّمة ، ومن أبرز ابياتها التي تتصل بالفن وبالجمال وبالدمامة وبنفس صاحبها وبالموضوع المعقود له الكلام . وأحسبني قد استطعت في شيء من الهدوء والنصفة ان أنفض مواضع القوة ومواضع الضعف ، ولكنني كما رأيت لم أقطع برأي في هذه القصائد منفردة ولا مجتمعة ، ولا دللت على مكانها من التوفيق أو الهلهلة الا بقدر ما اشرت الى البيت والبيتين والثلاثة . وانما فعلت ذلك لأضع اصبعك على الشعر في تفصيله قبل ان أضعها عليه في جملته ، حتى اذا استقرأت معي الشعر كله ، قصيدة قصيدة ، وبيتاً بيتاً ، استطعت ان أصل بك على نور وهدوء الى الخاتمة او الغاية التي أبتغيها ، وهي القول الفصل فيما قيل في مهرجان أبي العلاء من شعر

وذلك هو النقد التحليلي الذي يعرض لجزئيات الدراسة

واحدة واحدة قبل ان يبني حكمه او يطلق رأيه . أو ذلك هو النقد الموضوعي الذي يجري على طرائق العلم الحديث من الأخذ بأسباب الموضوع كما هي في واقعها وملابساتها ، من غير ان يكون للناقد في هذا الطور من البحث أثر في هذه الاسباب الا من جهة بيانها وفرزها عما يحيط بها من تشابك واتصال .

لقد ألمّ الاستاذ مهدي الجواهري ببعض جوانب المعري ، فوصف ما كان عليه من حال في بيته وفي نفسه ، وعزا اليه حباً ما كان تحسسه بين جوانحه ثم سحب على ذيل غيره من الشعراء في بعض المعاني الشائعة المعروفة . وأبهم الاستاذ بدوي الجبل في مستهل قصيدته ثم جلا بصيرة المعري في نفاذها الى الضمائر والنفوس ووقف عند المرأة كما بدت له ، ولام المعري حين كرهها ونعى عليها ثم فسر اسباب الكراهية وودّ لو ينتقم من مليحة هاجرة في صورة طريفة . وخلت قصيدة الاستاذ محمد البزم من كثير مما كان يجب أن يقال في المعري ، وإن لم تخل من تحية المهرجان او يوم الشعر ، ومن الحرص على طرائق الصنعة وشدة النسج وغرابة الالفاظ . وصور الأستاذ ابو ريشة شوق الانسان في شخص

المعري الى ادراك الخفي من الوجود والحياة والناس ، وتساءل عن كرهه للدنيا في عزلة الرهبان ثم انحدر من فساد قديم الى آخر يزعم أنه الآن قائم ، والتقى مع شوقي في بيت لا أدري كيف أخذه في رابعة النهار ! وأثار الأستاذ شفيق جبري الشعور القومي من طريق إحياء صور الماضي العربي ، وعرض للدنيا كما رآها ابو العلاء ثم تمنى طوفاناً يعم الكون لعل الايام تأتي بجيل جديد لم تروّع ذؤبانه سخاله . . .

فأنت ترى مما قصصت عليك الآن ، بعد ما فصلته في موضعه تفصيلا ، أن شعراء المهرجان قد قاموا بقسط من تكريم ابي العلاء ، فصوروا على الجملة حياته ، وبسطوا شعورهم في ذكراه الألفية ، على تفاوت فيما بينهم من جهة العرض القوي والتصوير الجميل ، ومن جهة الموهبة الشعرية والاصالة الفنية

والحق ان واحداً من هؤلاء الشعراء لم يعدم التوفيق يحالفه في البيتين وفي المقطوعة ، وان لم يتطاول هذا التوفيق الى القصيدة كلها على التقريب الا عند واحد منهم لا يجهله القراء فقد عرفوه مما سقت فيه من قبل وهو عمر ابو ريشة . فالأجادة في

أبعاض القصيدة دون أبعاضها قدر مشترك قد تساوى فيه اغلب الشعراء الذي أنشدوا في مهرجان أبي العلاء. وهذا القدر المشترك الموفق، على انه ضئيل وضائع وسط كبوات وعثرات، انما يدل في حد ذاته على ان شعراء المهرجان قد حاولوا ان يمسوا حدود الابداع فيما ندبوا له أنفسهم من ألوان التكريم لشاعر فيلسوف من أبرز شعراء العرب الفلاسفة عند القدماء

وإذن فهنا الوضع الصحيح لشعراء المهرجان: أرادوا أن يقولوا شيئاً من الشعر الجيد فكبا واحد منهم كبوة لم تسترها إلا صناعته ونسجه. ونجح الآخرون في البيتين والثلاثة، وكاد عمر ابو ريشة ان ينجح في قصيدته لولا بيان كان يجب ان يكون اكثر اتصالاً بأسلوب العربية وبروح العبقرية فيها. فالبيان العربي الاصيل من شرائط التوفيق والاجادة، بعد توفر الخيال المبدع، والتصور العميق، والجمال الفني. ولا أغلو، فاكثر شعراء المهرجان متصلون بأساليب العربية في التفاتاتهم البيانية، وفي تزاوج ألفاظهم، وفي ذهاب جملهم. وربما اسرف بعضهم في الحرص على هذا الجانب حرصاً كاد أن يستهلك ما كان يمكن ان يكون له.. او قل كاد ان يضيع

ما ينبغي ان يكون له من حبيبن التفات إلى جمال الذكرى وجلال الفن

وعلى هذا ، فالجمهرة الساحقة من شعراء المهرجان كانت في المحافظين : المحافظين في طريقة الأداء ، والمحافظين في الأوزان والبحور والقوافي ، والمحافظين في انسحاب المعاني والصور على الموضوع

وطبيعي جداً ان يكون الشعر السوري الجديد محافظاً ، ولا أقول جامداً ولا مجدداً ، فالحياة العامة في سوريا قد أخذت بأسباب النهضة الحديثة منذ عهد قريب ، فأقبلت على تجديد شتى مرافقها بحذر وبطء ، وتطلعت الى مذاهب الغرب بفتور وأناة ، على شدة حاجتها الى هذه المذاهب في مستهل بعثها الجديد ، لتأخذ منها ما ينفعها . وسوريا ما تكاد تخطو الى الامام ، بسائق من العصر ، مضطرة او مختارة ، حتى تتلفت الى الماضي فتحرص الحرص كله على خطوطه الكبرى ، وتحاول أن تساوق أنغامه مع الأنغام الواردة إليها من بعيد . . . وموقع سوريا بين الصحراء والبحر يدعوها الى ان تقبس من هنا ومن هنا بقدر ، والى أن تتردد بين ماضيها ومستقبلها في بعض الخطى ، والى أن يكون حاضرها

مزيجاً من الصباغ العربي والصباغ الغربي. فمن هنا كانت نهضتها الفنية كنهضتها العلمية ونهضتها الاجتماعية ونهضتها السياسية أيضاً، تساير وئيداً لا يخلو سيرها من المحافظة على أوضاع موروثة، والتطلع إلى أوضاع لا بد آتية. والشعر عنوان بارز من عناوين هذه النهضة الفنية في سوريا الحديثة، بل صفحة من أقوى صفحاتها دلالة وتصويراً، فهو إن رغب عند بعضهم في التجديد والحرية مرة فلقد رغب عند آخرين في المحافظة على سنن السلف مرات، ولئن اصطنع الثورة حيناً فلقد خلد الى مواضعات الماضي احياناً كثيرة

والشعر السوري لا يزال يجري في حدود الرومانتيكية العربية من جهة دوران «الأنا» في الحديث، وظهور الفردية، وبروز التجربة الشخصية مبسوطة بصفة المتكلم، والحرص على الغناء في الكلام، ونقض هتافات النفس الواعية، والاستجابة للفرح والأسى والذكرى وما الى هذا من عواطف وأهواء واضحة قديمة. لا يزال يجري ضمن دائرة الرومانتيكية العربية حتى في ضعف انطلاقها وفي كمون نزعة التمرد عندها، لا يثور على مجتمع، ولا يتحلل من مذهب في الفن الا قليلا

ويكاد الشعر في الأقطار العربية الأخرى أن يكون جميعه كالشعر السوري وجدانيا، لولا ان لبنان يحاول من جهته ان يجدد فينطلق نحو الرمزية بخطى موفقة الى حد عند ناس، تقليدية عند آخرين، جريئة على كل حال. والرمزية ليست هذيان شعور ولا خلط ألفاظ كما يظن بعض الأدباء، ولكنها تنظيم وعقل وموسيقية ورجوع الى اعمق واخفى ما في النفس ثم نفض ذلك بالأيماءة الدالة والرمز المعبر، على نحو ماهو في جوه وملابساته وتداخله...

أما الذين يقولون ان عمر أبو ريشة شاعر رمزي فهم لا يدللون على فهم صحيح لهذا المذهب المعروف، لأن من أهم روافد الرمزية عند الشاعر علوم الرياضيات العالية، والفلسفة المجردة الأصيلة. وانما يسحب ابو ريشة على ذيل الوجدانية العربية في جميع شعره، وان خيل لبعض القراء البسطاء ان الأمر على خلاف ذلك.

ولقد كان في مكنة الاستاذين خليل مردم وشفيق جبري أن يفيدا من مطالعاتهما الواسعة في الآداب الفرنسية والانجليزية لولا أن اسس ثقافتهما موصولة بآداب العرب الأقدمين، فبقيا حيث كونتهما

الأولى من الجري على مذاهب العرب

وقد كنت أوثر أن أقف من هذه الفصول التي أرسلتها عند فصل أعرض فيه على الخصوص الى الاستاذ خليل مردم بك كما عرضت الى اصحابه الشعراء، ولكن خليلاً نفسه اصطنع الذكاء في مهرجان ابي العلاء، فتولى التنظيم والاشراف، واستعلى على الشعر والشعراء!

وكيف دار الأمر كما يقول الجاحظ، فردم وجبري والبدوي وأبو ريشة والبزم، وآخرون في دمشق وحمص وحماة وحلب واللاذقية والسويداء، هم جميعاً من المدرسة العربية، على تفاوت فيما بينهم في اصالة الملكة الشعرية، وفي نقص الشعور الصحيح في اللفظ الجميل. وآية ذلك أنك لو قرأت شعراً لشاعر من هؤلاء الشعراء لم يمهر توقيعه في ذيله، فلن تستطيع ان تحزر من هو على الضبط قائله، فانما شخصيات الشعراء في سوريا، وفي الشرق العربي ايضاً، متشابهة في الأغلب الأعم، قريب بعضها من بعض، لاستيحائها مثلاً أعلى واحداً، ولأنها تقتات جميعها من المائدة العربية...

ربما كان الاستاذ أبو ريشة الشاعر الذي يصطبغ شعره بلون متمايز، من حيث دورانه المتصل حول بعض الصور، ومن جهة استعماله الكثير لبعض الالفاظ. على أن البزم متمكن من لغته، شديد العناية بنسج أبعاض جمله، يشركه في ذلك الاستاذ بدوي الجبل مع الذهاب وراء متسقطات الخيال. اما الاستاذان مردم وجبري فمتظرفان متأنقان في الشعر، مقلان في الأنتاج، ولكنهما على ذلك موفقان في اكثر ما ينظمان

ما عسى ان يكون مستقبل الشعر السوري المعاصر؟

مثل هذا السؤال تستطيع ان تلقيه بالنسبة للأدب العربي الحديث كله، ويظل جوابك عليه واحداً لا يتغير الا قليلا، لأن قضية الادب العربي في العصر الحاضر يجب وضعها جملة تحت البحث مع اختلاف في النظر يسير بين قطر وقطر. ومن قبل، أجاب على هذا السؤال المستشرق الفرنسي «كليمان هيوار». فقد عقد فصلاً خاصاً في آخر كتابه الضخم عن «الادب العربي» تساءل فيه أيكون هذا الأدب في المستقبل تقليداً للعصور الكلاسيكية القديمة أم أن اللغة العربية تضطر إلى أن تتبدل تحت

ضغط الآراء الحديثة ، فتثري من جديد باصطلاحات فنية مستحدثة تحيي الأصل القديم ؟

في هذا الفصل عرض « هيوار » الى تطور اللغة العربية ، واستعمال الألفاظ المسجوعة ، وتشكيل أحرف الطباعة ، والكتابة بالعامية والفصحى. حتى إذا استوفى ذلك بشيء من الايجاز والسرعة والمكر ايضاً ، قال : « كل الذي نرجوه من اديب العربية في المستقبل هو ان يتحرى الوضوح والبساطة في بيانه . وحين يتحقق ما نرجو ، نستطيع ان نتنبأ للأدب العربي حياة زاهرة تدوم ما دام الاسلام الى قرون عديدة »

تعنيني من كلام هيوار كله ، بالقياس الى مستقبل الشعر السوري والأدب العربي ، كلمتان : التحرر من الكلاسيكية ، والبساطة في البيان . وثالثة أضيفها أنا من عندي : الصدق الفني

من وراء هذه الكلمات الثلاث ، طائفة من المعاني قد تغيب مداخلها في الأذهان . ولكن الوقوف عندها او تقليب امرها ، تفصيلاً ، يحتاج الى صفحات . فحسبي اذن اني دللت هنا عليها جملة لتكون معالم منيرة يستهدي بها السائرون عندنا في طريق الأدب

لست من المتشائمين . واذا كان الذين ذكرت من الشعراء في هذه الدراسة هم أصحاب السيرورة والشهرة بين قراء الأدب في سوريا ، فأن فريقاً من الشباب الشاعر المجدد يحاول أن يشق طريقه في زحمة الشيوخ ليساهم في حمل مشعل الأدب السوري الحديث على أساس من مواهبه المبدعة ، ودراساته الواسعة للآداب الاوروبية والأميركية والعربية والشرقية أيضاً . والأمل معقود على الشباب والاشياخ في النهوض بالشعر والادب الى منازل الاحسان

أما النقد فمن وراء أولئك وهؤلاء يسدد الخطى اذا تعثرت ، وينير السبيل اذا دجا ، ويصحح المقياس اذا فسد . يهتف للمجيد ، ويبسم للدميم ؛ لا يقسو ولا يعنف ، فالنقد الحاد يضر الناقد ولا ينفع المنقود

وهذه صفحة بسطتها مدى اجتهادي . حسبي منها اني وضعت لبنة متواضعة في صرح النقد الجميل . وعند القراء جزائي ..





AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت